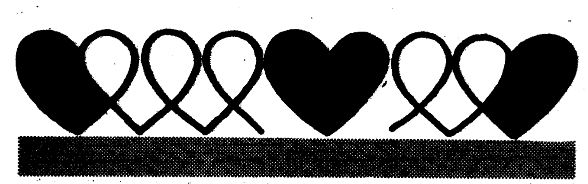
جيلان حمزة

الحبيبة





● العدد ٢٧٩ ● مارس ١٩٨٨

الغلاف : بريشة حسين بيكار
الماكيت والرسوم : محمد عفت

الفصل الأول



تعمد خالد ان يتلكا فى إغلاق ابواب السيارة حتى تسبقه زوجته مها إلى بيت والدتها حيث يقطنون ، كانت المفاجاة هناك ، وبدون ان يرهف سمعه او حتى يلتفت تجاهها كان على يقين من ان ما دبر له واقع .. لابد من إدخال الرعب إلى قلبها ..

وهذه الرغبة الغريبة التي بدأ يشعر بارتياح غريب عندما توصل إلى طريقة تنفيذ ما لها بدون [illegible] .. لم يعلم متى سيطرت عليه . ولم يطل تلكؤه .. فصيحتها التى شقت سكون الليل فى هزيعه الأخير بعثت فيه رضا وابتسامة لو رأتها مها فى غبش ذلك الظلام لذهلت بل ربما أصابها مس .. فالحيوان الذى بدا خرافيا تحت ظلال اوراق الشجر المتشابكة عند مصباح مدخل البيت والذى يضفى على المكان قتامة ظلال شبحية اكثر مما يبدد من الظلام .. كان ذلك الحيوان يقف منتصبا على خلفيتيه مسندا ظهره وذيله على الباب ويكاد أن يصيح بها .. ممنوع الدخول لا إراديا مدت يدها محاولة لمس الباب واحساس بجداره الخشبى وصل الي اصابعها قبل أن تستند عليه فازداد الحيوان اقترابا منها برقبته فقط وابقى جسده على وقفته الأولى يزوم فى وجهها يحاول ان يطاول راسها . فاجفلت ساحبة يدها وكان جدارا تمثل امامها ، جدار المستحيل الذى يفرق بينها وبين دخول بيتها والكلب يقترب منها بوجهه الذى تحول إلى طابقين من الأنياب الكبيرة وينبح اكثر فينقبض ويتكور جلد وجهه وتبرز انيابه اكثر ، تماوجت الأرض تحت قدميها وهى تلقى بثقلها إلى الخلف مبتعدة هلعا منه فى هذه اللحظة تلقفها خالد زوجها يحتضنها إلى صدره بقوة فاستقرت واقفة بين ذراعيه وأستسلمت فى ارتياح تمتص بشراهة اى معنى للامان ، وبادرها بلهفة :

— مالك ترتجفين هكذا يا مها ؟

بيد واحدة كان يشدها إلى صدره واليد الأخرى تربت على رأس كلبه الذى اخذ يبتعد عنهما وعن مدخل البيت ، بصوت يرتعش فيه معنى الهلع كانت تقول :

— خالد ليس معى مفتاح حجرتى لأنه فى الحقيبة التى وقعت ..

لم تكمل عبارتها فلقد عاودتها رجفة الذعر مرة اخرى من شدة ضحكته وهو يقول :

— مها ها هو « ركس » يحمل إليـك حقيبتك هـذا كلب اصيل للحراسة و ..

وآثرت مها ان تئد كل تساؤلاتها وهى تعى انها ستكون قريبة من زوجها وستنسى كل ما حدث حالا .. حالا ستكون لصيقة بالضلع الشمالى لخالد وستعرف الأمان ..

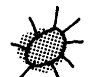
وقررت الصمت فهى لا تنسى قراءتها كتاب فن الحياة « لأندريه موروا » يومها استوعبت ان فى الصمت حياة بل ويوجد فن لها .. ولم تكد تتلاشى ظلال الابتسامة من على شفتيها إلا وصوت آخر من داخلها يقول لها بتاكيد : « مها لم تكن القراءة ولا والدتك ذات الإرادة التى لا تقهر ولكنه خوفك من الموت » سقطت يدها على وجهها تحميها من هذه المواجهة لا تريد الساعة ان تخوض اى مناقشة مع نفسها فلقد كانت حقيقة الموت تخيفها ويقشعر لها بدنها الصغير التكوين ثم تتردى فى قاع الخوف وهى تتذكر كيف اختطف الموت والد ابنتها « منى » ولها من العمر شهور طولها سنة إلا شهرا يومها كانت اصغر من ان تعى كيف يسكت ساقطا إنسان ممتلىء بالحياة وماذا تعنى عبارة « سكتة قلبية » ولمحت وجهها فى المرآة العريضة عن يمينها . دمعتها متحجرة داخل عينيها . تسترجع وهى شاخصة مفاهيم الدنيا عن الدموع يقولون عند الموت تنساب دمعة واحدة يطلقون عليها دمعة الفراق ولكنه لم يترك لديها حتى هذه الدمعة وتجد نفسها مرة اخرى تفكر فيما تخشاه رغم انها لم تعد جزعة منه إلى الحد الذى كان . فلقد انصعق ابعد مافيها وانشق الصدر منها وهم يبلغونها مرة ثانية وبكل تاثير وفاة عم ابنتها شهيدا عام ١٩٤٨ وبعدها انجبت منه ابنتها الثانية « رجاء » واصرت ان تسميها « رجاء » لسبب يتجدد مع كل نفس يحتويه صدرها ولا يخرج مع اى زفرة من زفراتها المتواصلة .. اسمتها هكذا لان الرجاء كان يعنى بالنسبة لها رجاؤها فى ان تنجح فى التغلب على الم واحد والمها سر لا يعرفه إلا هى وصار عادة شخصية فيها ،

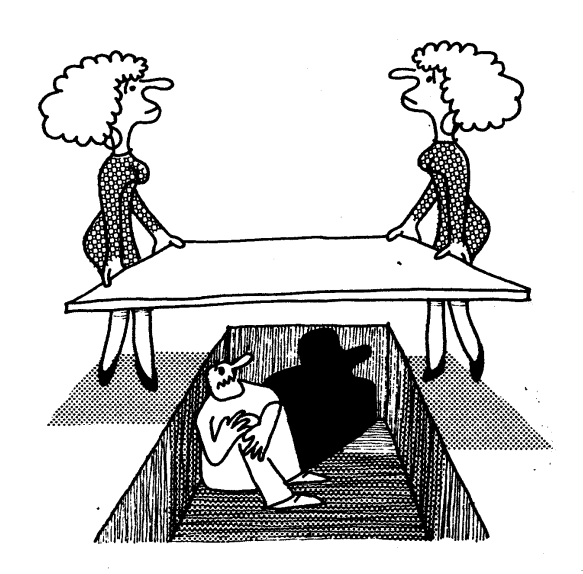
لا يجب أن يعرفه احد ولا مشاركة لاحد فيه ، وحدها تتعذب ووحدها تنفعل وهى تحلم أن تطرد ما ينوء به قلبها خارجها مفتقدة مشاركة اى إنسان .. تجتر الامها وهى تتذكر ذراعيها المتصلبتين دوما فى وجهه تبعده عنها فيلف حولها يذكرها بواقعها ، يهمس فى اذنها « يا مها انا لا ابغى شيئا غير شرعى لقد صرت زوجة لى بعد اخى » أحرف كلمته الأخيرة صلبت حواسها لدرجة اعلى من الضجر فازاحته ابعد وهو يردد « لقد صرت زوجة لى بعد اخى » ولكنها متجاهلة كل ما يناديها به أزاحته بقوة ، فقتلت فيه الشوق وخر مهزوما على صوت صفير عربته ينتظرونه فى ارض اللاّ عودة وزفرة ارتياح خرجت منها . ارتياح لابتعاده عنها لان تقارب الشبه بين الأخوين ساعد على اقتحام صورة الأول فى ثنايا الثانى وتتناوب الصورتان فتجد نفسها قرب نهاية التجوال لا تفرق بين من فيهما تقضى لحظات بعينها تفتح جفنيها فتعيش مع الثانى وتعيه ثم تسدل جفنيها فتذهب مع الأول بكل حكاويه ولم يكن لها حيلة فى فتح جفنيها أو إسدال اهدابها . إحساسها فقط فى تلك اللحظات بأنها لا تزيد عن قطة تقف على حاجز ضيق يفصل بين بيتين وتهاجم من الجانبين نوعا من الترويض القدرى لكن بلا لحظة نهاية !

وتعود القطة تقاوم ، تتصلب ، وتتشنج ، رافضة ، كلها جزئيات ثائرة تصرخ ضيقا وضجرا منه ومن ثورته مهما كانت شريكة فيها ، فارتكن هامدا على حافة مخدعها ومع صفير عربته ودق الباب وهى تلملم ملابسها وتغض الطرف عن رقدته من خلف شعرها الذى انسدل وشاحا اسود لمحت بطرف عينها دمعة واحدة سالت حتى نهاية خده ولم يكن شاخصا لها كان بعيدا عنها وفجاة هب واقفا يتلفت حواليه يلتقط حقيبته الكاكية .. صندوق من الحلوى طلبه القائد وجرعة ماء من زجاجة موضوعة هناك .. لم ينس ان يمد عنقه ويطبع قبلته على اى مكان من وجهها فتلبستها رغبة صادقة فى

ان يحتويها بصدره .. ومازالت تكره اللحظة التى يتناوبان فيها ، ليته يكف عن تكرار كلماته التى تلقى بها فى بئر ليس لها قرار فتغرق فى برودته حتى الشبع .. تختنق وهو يبعدها عنه إثر دقات بدأت خفيفة والجندى الآن يركل الباب بمقدمة حذائه ليسمعها وكأن الأرض تلفظها من تحت قدميها فلا هى واقفة ولا تستطيع أن تسير .. الدوار يزداد بسرعة مجنونة كل ما تعيه من حولها مربعات سوداء وبيضاء تجرى فى إثر بعضها كلون بلاط الأرضية ، كان دربا من طغيان إعصار مفاجىء . إحساسها كأوزة فقدت رأسها ورغم ذلك تجرى على درب محفوظ لها وفى خط مستقيم إلى فراشها فى ذيلها تقارب ركبتيها كانت صغيرتها « منى » لاهم لها وسط كل هذا الاعصار إلا أن تسقط يدها على بطنها بضربات فجائية تلتقط النبضات وتنظر إلى أعلى قريبة من وجه أمها فتطفو إلى حلق مها ضحكة مفتعلة تخرجها من أنفها لأنها على يقين من أنها لا تضحك معها لما تسمعه أو تنتظره ولكنها إذا ضحكت فانما يكون هذا على نفسها فقط وليس لاستقبال المجهول ككل المنتظرات فى هذه الدنيا .

كان خالد قد توارى فى حجرة جانبية ليبدل ثيابه ، صوته يعبث بالأشياء الموضوعة على رف الحمام يصل إلى سمعها وتلفتت عامدة إلى مرآتها للحظة لم تتعرف على وجهها ! فقد رأته كالفرجة التى كانت تشاهدها فى صندوق السفيرة عزيزة حين كانت تصوب عينيها خلال الفتحتين ويسدل الرجل ستارا على رأسها كأنه يسرقها . يسرق رأسها من الزمن وهو يغرقها فى المشاهد التى تتوالى أمامها عن قصة السفيرة . بخفة فهد ، وجدت خالد يحيطها بذراعيه يدللها كعادته « يا ابنتها القصيرة الصغيرة » ومع حضور خالد تراجعت دمعتها إلى الأعمق إلى قلبها كل همها أن لا يراها ضجرة أو غاضبة فما دامت قد دخلت بيتها وخالد ينتظرها فهذا يكفيها فلقد خمد فيها الكثير مع رحيل عم ابنتها الذى تزوجته وأنجبته رجاء ابنتها الثانية فلم يكن إحساسها بموته أنها إرادة قدرية لا دخل لها فيها ولكن





ما يملؤها . انها المذنبة والدنيا لا تعطى زمنا للتكفير عن الأخطاء إنما الذنب يقع والعقاب يبدأ فكان جزاؤها القدرى أن يموت . تجتر إحساسها بانه كان كريما قبل شعرها قبل ان يغادرها فى حين أنها بالغت فى خيانته والصور تتناوب فى مخيلتها له ولشقيقه ، الشعور الكامل بالذنب الذى سبقته الخيانة هو الدم السيال بين جلدها وعظامها ، امراة قصيرة قصيره تسير عارية إلا من ذنوبها السرية . فلا هى تقع تحت طائلة القانون ولا هم حتى يشيرون إليها وهى تسير هنا وهناك . المذنب هى والقاضى هى والجلاد هى كقاضيه .. كانت تقر بذنبها وقد حكمت على نفسها بكامل الادانة مع العمد ولكنها كجلاد تدلس على الجميع .. تراوغ .. تهرب .. تتوارى إلى صمتها .. وصمتها طويل وعزوفها عن اشياء صغيرة لانهاية له ، فلم تكن تضجر من شىء ولا تكثر من اعتراضاتها على شىء ، ولماذا ترفض ؟ لماذا ؟ وكله إلى زوال وفراق هى غفلة من عمر الزمن طولها برهة ثم تجد ان من تضجر منه ذهب إلى عالم اللاعودة ..

افاقت على صوت خالد « الى اين يامها ؟ » ، كانها استيقظت على تساؤله ثم وعت بحدة انها اخطات فى حقه استباحت دقائقه فبادرته بكلمات كثيرة كان اقواها ما كان صامتا تتمرغ فيه الكلمات على صدره الى يديه .

نبشات اظافر الكلب على الباب ولما كان جزء كبير منه من الزجاج فقد رات ظله جسورا يطاول ارتفاع الباب يحاول أن يخترق بعينيه حجب الزجاج ، والدتها دائمة القول بانه بيت منسى فارتفاعه يصلح لأكثر من طابق .. وقالت :

— صوت الخربشات تضرس أسنانى .. و ..

بهدوء شديد كان خالد يفتح له .. يربت بكفه على رأسه فى حنان كبير وزفرة خافتة خرجت من مها فبادرها :

— لا تشغلى بالك به .. فانا فقط الذى افهمه ..

— خالد هل تؤمن بفكرة تناسخ الأرواح ؟

—لماذا هذا السؤال ؟

— لأنك تحب فعلا هذا الكلب وهو كذلك كانكما ..

— إنا أؤمن بكل فكرة فى مجالها .. فى بلادها .. فى الجو الذى خلقت فيه ..

— إذن كلمنى عن تناسخ الأرواح

— انت تعلمين انها فكرة هندية و ..

— اعرف جذورها من امى ولكنى أريد ان اعرف رايك ؟

— مها حبيبتى .. الوقت متاخر وعلى ان اتركك عند الفجر حتى لايشعر اخوتى بغيبتى عنهم .. لا أريد أن يقال باننى اهملتهم عندما تزوجتك .

دوما يتركها عند الفجر .. فتظاهرت بابعد الاحلام وهى ترقبه خلسة يقترب من زجاج المرآة له نظرة معينة لبرهة بعدها يترك لجفنيه ان ينسدلا ايضا بطريقة معينة يعرف أن هذه الحركة التى ياتى بها إما عفوا او مقصودة تزيد من جاذبية عينيه .. فلم تتمالك مها نفسها من ان تضحك بصوت مسموع ، فالتفت اليها بلهفة :

— حبيبتى انت يقظة حتى هذه الساعة !؟

— انا ارقبك منذ البدء .

— وماذا رايت فى ؟

— رأيت جمال نظرتك وانت تعرف هذا

اقترب جالسا على حافة الفراش .. ضغط على يدها .. دماؤه فى عروقه توشوشها .. « ما أحب فراقك » ونبضها يتخبط معذبا لها متى ينبئها انه ينوى ان يفارقها وتوقن انه سيرحل الآن سيستدير ويبتعد خطوتين ثم خطوتين وهى تحتوى فى قاع عينيها ظهره مبتعدا يؤلمها اليقين بانها تراه الآن من خلف قطعة الزجاج ، تتمنى أن تكون جدران البيت كلها من زجاج حتى تلاحقه وهو يتركها .. « لماذا يا أمى لم يصنعوا هذا البيت منسيا ولكن من زجاج ؟ » تشتهى أن يبقى فجرا واحدا بجوارها .. فراشها استعار سطح موجة بحر .. وجسدها يرتج والغطاء استعار دقات النبض منها .. الحجرة

كلها بقطعها الكثيرة القديمة تدق دقات لها نغمة واحدة ومعنى واحد « سيبتعد الآن ولسوف يسرقه عمله كطبيب كبير » وهى تعى أن الدق يجمع على هذه الحقيقة حتى اليقين إذ وجدت نفسها أمامه تضع يدها على مقبض العربة وهو ملتفت براسه الى الخلف . رأسه كالف الف راس لكل الرجال ولكنها فوق كتفيه تجعلها تحس انه فى مكان مقدس لأنه يحمل فكرا وسلوكا استهواها واقتربت بوجهها أكثر فعاشت لطرفة عين عبق هذا الرجل الانسان ولما رآها بكل أدب الرجال نزل ليحتويها بين ذراعيه .

— حبيبتى مها نزولك من حجرتك وانت دافئة ضار بك و ..

— خالد اتركنى الآن .. وبسرعة الآن .. ابتعد وباقصى سرعتك .

تمسك بها اكثر يربت بكفه على شعرها .

— ستعود قل لى متى تعود ..

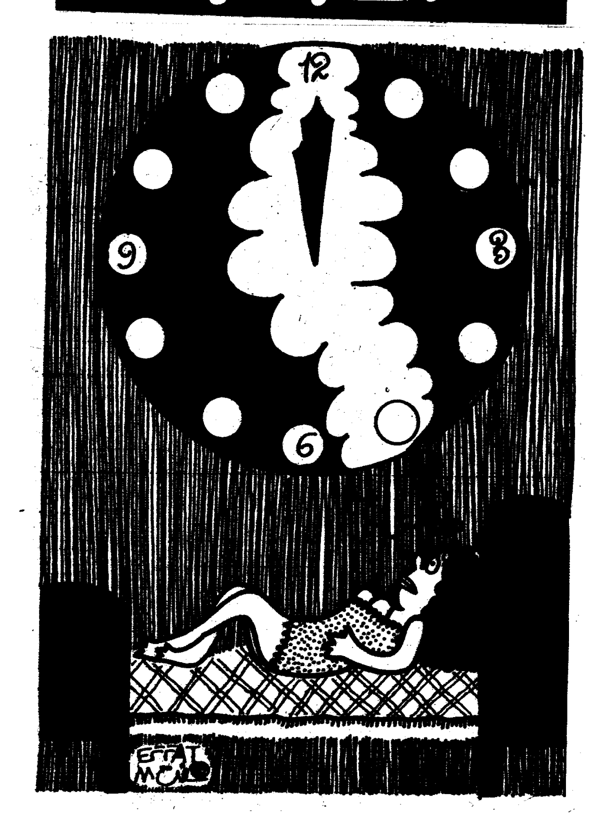
وهو يلمح ساعة يده كان يقول :

— اليوم امامى ليس اقل من عشر ساعات عمل واكون عندك .. اصعدى الآن لاطمئن عليك ونامى .. نامى ، ساكلمك وساتى .. ساتى ..

كما نزلت بهذه الطاقة عادت وصعدت بكل ما تبقى فيها من قوة ، دخلت على اطراف اصابعها الى حجرة امها فى آخر الممشى تسحب الهاتف فاوقعت صورة لأمها .. امتلأت اضطرابا وهى تعيدها الى وضعها الأول . الصورة لأمها والملك فاروق يلبسها وساما على ظهر الباخرة سودان يوم ان استطاعت ان تنجز تطعيم ٢٠,٠٠٠ عشرين الف إنسان بمصل الكوليرا فى عشرين يوما .

تعرف أن أمها تعتز بهذه الصورة وبذكراها واضافت لها كذلك بأن والدها مات بالكوليرا فى ادغال السودان .. اعادت الصورة الى مكانها وعلى اطراف اصابعها كانت تدخل فراشها بالهاتف .. بين اليقظة والنوم كانت تعاود لمس سماعة الهاتف أو رفعها لأذنها لتسمع نبض الآلة نبضا مصطنعا كنبضة القلق التى تتخبط داخل صدرها من هول ألا يأتى وألا يدق ..

• الفصـــل الثـــانى •



دعوبـة الشمس فى بحثها عن جفونها . تسدلهما
فتعى الضوء قريبا من حدقة عينها تفتعل
النعاس فترى الضوء شاهق البياض بعد
كل فجر تظل تدفن رأسها محاولة تجاهل
الزمن تريد أن تواصل نومها
إلى اقرب الساعات لعودة خالد ، لا تصحو فعلا
إلا وامها تضيف إلى صوتها طبقات وهى تناديها
ليبدو اغلظ من حقيقته او به لهجة الأمر فتقوم لتواجه بياض النهار
تنتظم دقات قلبها التى اعياها دخول الضوء الأبدى وبقفزةواحدة
تفتح لها الباب تنوى ان تحتضنها فإما ان تطلب منها إعداد الشاى
او تكون قد اعدته فتتلقفه منها وهى تتراجع بخطواتها إلى الوراء ..
خطوة تتبعها هى بدقة من عصاتها على الأرض . خطوة ودقة ومع
الثالثة تضع صينية الشاى على المائدة الصغيرة ، وتزيح الكرسى
تعرف سؤالها الأول تنظر إلى شفتيها لتسمعها :

— هل حضر خالد بك بالأمس ؟

اشارت لها براسها فلقد اصبح من الأمور المعتادة ان لا يراه احد
عند حضوره او رحيله فاعادت سؤالها :

— هل تعشى ؟

— نعم بالقدر القليل الذى لا يتعداه ،

بتعجب قالت :

— رجل مجهد ولا ياكل !!

— امى من الأسلم له الا ياكل .. ويكفيه إجهاد الذهن فلا داعى
لاجهاد المعدة ايضا .

هزت راسها بتعجب وهى تقول :
— يمكن .. جائز .. هذه من مقولات الطب الجديدة ولكن لا شك انها ظاهرة غير سليمة و ..
كانت مها تعرف باقى كلماتها تلفلف شريط عباراتها قبل أن تنطق به فكم تدمن حديثها وتنتظره حتى ولو كانت تحفظه عن ظهر قلب دائما كلماتها معجونة بالحكمة .. وفجاة صرخ الهاتف .. هذا الدق اقام فاصلا حادا فى عقلها بين ما كانت تفكر فيه وتنتظره من كلمات امها وبين واقع إحتلها .. وكانت تختنق قبل ان يعلمها سكرتير خالد بسفره ومنذ ساعة واحدة لأجل المؤتمر الطبى الفلانى وعلى اثرة .. ولغرض .. ولا يعرف موعدا لعودته المرتقبة ..
رشفة برشفة مع شاى الصباح كانت تحاول ابتلاع حقيقة رحيله لحظة اخرى وسقط عليها وعيا كاملا بانها بدون خالد ستعيش اياما غير محددة .. بدونه سيطلع عليها نهار وسينقضى ليل تستعجل شمس غدها وقمر بعد غدها والأمنية واحدة بداخلها ان تجد نفسها ذات فجر وجها لوجه معه ..
هل سمعت باقى كلمات امها ؟ هل دقت عصاتها وهى تروح وتجىء ؟ لا تدرى متى بداتها بكلامها :
— مالك لا تقومين من جلستك منذ الصباح ؟
— اقرا الجرائد .
— وما فائدتها ؟ فلتقرئيها كلها فهذا لا يقدم ولا يؤخر !
— اتسلى .
— كالتافهين فى قراءة البخت ؟
— اتسلى .
— كذب المنجمون ولو صدقوا !
— إذن ماذا افعل ؟ هل أجهز الحمام ساخنا للبنتين ؟
ابتعدت خطوة واحدة ورفعت عصاها قائلة :
— لالا ارفعى يديك عن البنتين .. فى كل مرة تتشملى تكون

النتيجة ان تمرضا !

— انشغل بشىء .

— على حساب صحة البنتين .. ابحثى لك عن تسلية اخرى .

— لماذا .. انا امهما ؟

وهى شاخصة اليها من تحت نظارتها فبدت عيناها اوسع من حقيقتهما خرج صوتها حادا وبثقة كانت تقول :

— لم ترب الأولى فمن اين لك الخبرة بالثانية .. مها تسلى باية لعبة اخرى ..

— إذن اصنع لك حلوى انا اجيدها و ..

بنفس هذه الحدة من صوتها كانت تلوح بعصاها محذرة :

— لالا إياك ان تفسد يداك من العمل فى المطبخ .

واقتربت منها خطوتين فاراحت مها اناملها فى كفها .. تعرف مدى حبها لها وتباهيها بها لو تكلمت الآن لقالت لها اصابعك قصيرة تشبه البلح الزغلول .. وكانت زوجة عمك تطيل التحديق فيهما ومرة اخرى انهالت عليها :

— اكثر من مرة حذرتك من التعبير بجبهتك وانت تتكلمين حتى صارت مليئة بالخطوط ! ولا تضعى ساقا فوق ساق لانك قصيرة .. ارفعى ظهرك .. إياك والجلوس منحنية ..

لم تدعها تكمل :

قاطعتها ضاحكة :

— اوه يا امى الحبيبة ، دائما لك ملاحظات لا تنتهى ..

— فلاحة .. فلاحة سنة بعد سنة وتظهر عليك عادات سيئة .. محنية وانت فى هذا العمر ؟ أم تريدين أن تبدى كالمسكينة ؟ بماذا تفيدك شفقة الناس عليك .. شيئان لابد ان تحافظى عليهما ..

بلهفة قاطعتها مها :

— ما هما .. ما هما ؟

— صحتك يعنى سلامة عقلك و ..

— واين هوعقلى يا امى ؟

فتمط والدتها شفتيها وهى تردد اكثر من مرة باسف .

— فلاحة ضعيفة ..

والدتها كما يقولون من اصل تركى وعلى وجهه التحديد شركسى انجبتها امها ـ جدة مها ـ من ضابط مصرى فى الجيش السودانى ، ومن قبله كانت الجدة المحظية الأولى لدى السلطان فؤاد بعد ان انجبته ولدا إلا ان هذا الطفل اثار غيرة باقى الجوارى فقتلوه فى مهده ولم ترض بمنزلة الجارية مرة اخرى فمرضت ، ولما حار الأطباء فيها أهداها السلطان إلى أحد ضباطه فتزوجها وانجبت منه والدة مها التى تولتها مرضعة مسقط راسها جنوب السودان .. وكبرت والدة مها تصطخب فى عروقها الدماء الشركسية بالدماء البربرية مناصفة مع المصرية فكانت لا تعرف الكلل فى مناقشة مها عامدة بهذا الداب المستمر ان تنبت داخلها الإيمان بعقلها هذا التكوين المبهر الذى لا حدود لقدرته وكثيرا ما كانت توصل لها هذا المعنى باكثر من طريقة تؤكد لها بانها بهذا التكوين تستطيع ان تلحق بكل ما ضاع منها وبذلك يكون لها دنيا وعوالم أرحب واوسع ، وكثيرا ما كانت مها لا تستوعب ما ترمى إليه امها من كلامها معها إلا فى هذا اليوم .. يوم ردت عليها مها قائلة :

— ماهو الذى فاتنى يا امى غير الحظ . و ..

ولم تكد تكمل عبارتها إلا وتوحيدة هانم والدتها تضرب بعصاها الأرض وقبل أن ترفعها كانت مها تصرخ :

— لا .. لا .. يا امى إياك ! العصى منزوع منها قطعة المطاط واقل دفعة بها سانهار .

— تنهارين .. إخجلى من نفسك .. ما دام لك عقل فانت تخلقين ولا تنهارين .. الم اجعلك تقرئين عن اليوجا ؟ بها يمكنك ان تحولى حتى ضربات العصا إلى توقيع موسيقى ..

— يوجا إيه ما تصلى على النبى !

— عليه الصلاة والسلام .. يابنت يلزمك الكثير حتى تعرفى قيمة الإنسان وقدراته غير المحدودة ..

كان حب توحيدة هانم لابنتها عاصفا كالأعصار يهب عند أول تلويح من السماء ينبىء بما يشغلها عليها .. وكان أول ما أقلقها نموها الناهد هذا الذى جعل من ابنتها دوائر دوائر وبقدر ما أقلقها هذا الشكل بقدر ما أمكن لملمته فى قبضة يد الخطيب يومها فاجأت الجميع برأيها « إذا أرادت التعليم فلتكمله وهى متزوجة لأطمئن عليها » عندها أن الزواج أصوب نظام اجتماعى فهو إشباع ثم أطفال ثم تربية الأولاد ثم تزويج هؤلاء الأولاد والحياة عندها مهام صغيرة وكبيرة يجب أن ينتهى منها الإنسان الواحدة بعد الأخرى هكذا بالمنطق ودون اللجوء للوقفات العاطفية تبعا للأهواء النفسية مهما كانت وكثيرا ما كانت تصب أراءها المرة بعد المرة واليوم بعد اليوم فى أذن ابنتها دون كلل :

« النفس البشرية كالجنود تسيرها إرادتك لتتخطى بها أى صعاب فلا تدعى هذه الجنود تتمكن من إرادتك وإلا قضى عليك الحزن أو حتى الفرح لأن الإرادة ضعفت لجنود نفسك وانفراط عقدها .. يجب على الإنسان أن ينمى إرادته وباستمرار »

★ ★ ★

لم تناقش مها زوجها الدكتور خالد فى فجائية أى تصرف له ففى أعماقها أن الجميع راحلون فيوم سأءلت والد رجاء لماذا تزوجها بعد أخيه ؟ وكيف قبل ؟ لم تتوقع أنه سيرد عليها بأقصى ما يمكن أن يوجهه لكرامة امرأة بأن رحل كأنه كان يقول لها « استمرى فى غيك فلن تفيقى إلا بهذا المقلب إلى أذنيك لقد تحملتك وتحملت نفسى كثيرا وأنا أجاهد لأخرس عقلى وأخص مشاعرى وأشعر بك وقد نجحت فداء للعديد من القيم » حين وصلها هذا المعنى كانت تقرر بأن يفعل ما يشاء ومتى شاء فالحياة خاطفة ليفعل بها خالد ما يريد ليأخذ منها ما يكفيه . لم تستطع أن تتخلص من ذلك

الإحساس الذى يهدر داخلها بامكانية أن يسلب منها خالد وقبل ان تتجه إلى نافذة حجرتها تتحسسها بتعاريجها الموجودة فيها .. حتى بعد هذا الزمن مازال اثر القلم يرسم حلا لاحدى مسائل الهندسة يوم كانت تستريح بمرفقها تنظر إلى السماء وتعرف فى القمر وجه الله .. يوم كانت ترفع راسها لتساله .. وكان الوجه يضحك لها وتعرف ان الله استجاب لدعائها ستنجح فى شهادة الشهر القادم .

لمحت القمرَ فلم تر فيه وجه الله القديم الذى كان يعدها .. وبصدق تساءلت هل وجه الله للأطفال فقط .. وعادت تغرس مرفقيها على النافذة وتفكر بانه على الأقل كان يجب أن يكون لديها ولو فكرة عن موعد عودته وهى تتجاذب ونفسها هذه الأفكار ظهرت والدتها فجاة صارخة :

— طبعا لا داعى لمساءلته .. الدكتور خالد مشغول دائما وهو ..

فاجفلت مها مستديرة :

— ماهو العفريت الذى نقل لك ما يدور فى عقلى ؟ !

من فورها بادرتها :

— انا اعرفك .. اكثر مما تعرفين انت نفسك .. عفريت إيه يا جاهلة .. لابد ان تقرئى لتتعلمى ان ..

— اتعـــلم .

— نعم هناك دائما المثل بانه لم يفت الوقت بعد .

— انتظم فى الدراسة .

— ولم لا .. فيه شغل لوقتك .. والسنوات تمر واراك عظيمة و ..

كانت توحيدةُ هانم تشعر باستغراق ابنتها وترديها بسبب غياب الدكتور خالد المتلاحق ، وكانت فى نفس الوقت لا تقبل هلجس شقائها لاى سبب وإذا كان مفهوم الحياة عندها انها صراع ولكن بشرط ان يكون هذا الصراع مع القوى اللانهائية القوة مع المطر والصواعق مع الأرض فلا يجب ان تتوقف ابنتها عند اى لون من

الصراع الرخيص الذى يدور فى عقلها الصغير لا تقف مثلا عند من يتهامسون حولها بانها ولدت شقيقين لان الله القوة المتصرفة ارادت ذلك ان صراع ابنتها يكون مع الأرض التى تقف عليها والتى تحاول ابتلاعها وحين صرخت فيها مها كانها وضعت يدها على الحقيقة .. « ها انت تقررين ان الأرض ابتلعتنى يا امى » كانت توحيدة هانم تقترب منها مصطحبة إيقاع عصاها وابتسامة ظاهرة على وجهها وهى تقول لها بحنان :

. — ابتلعتك حتى خلخال ساقك فقط يا مجنونة .

لا إراديا تحسست مها ساقها وكانها تؤلمها فرفعت امها عصاها محذرة وهى تشير لها « كان الأجدر بك ان تضعى قليلا من زيت الجوز على ساقك هذا يعطيها رونقا يا بلهاء » تشرب ابنتها منها فى اى مناسبة معنى الجمال والرونق فى كل لحظة من حياتها حتى صارت هى الأخرى تملك بعض ملكاتها .. اغوار عقلها تبحث عن الجمال وتعيشه حتى ولو كان ما تراه بعيدا عن هذا المعنى فعينها تتممه .. اذنها تستبعد الدقات الدخيلة وتبقى وحيدة تسمع اللحن الأشجى داخلها ..

★ ★ ★

بدات توحيدة هانم مع ابنتها بهذا الاسلوب حتى قبل أن تتزوج خالد اصطحبتها يوما لزيارة احد معارفها وكان محاميا شرعيا وعالما ارادت ان تساله المشورة فى بعض شئونها المالية .. قدمت له مها قائلة :

— هذه ابنتى التى حدثتك عنها و ..

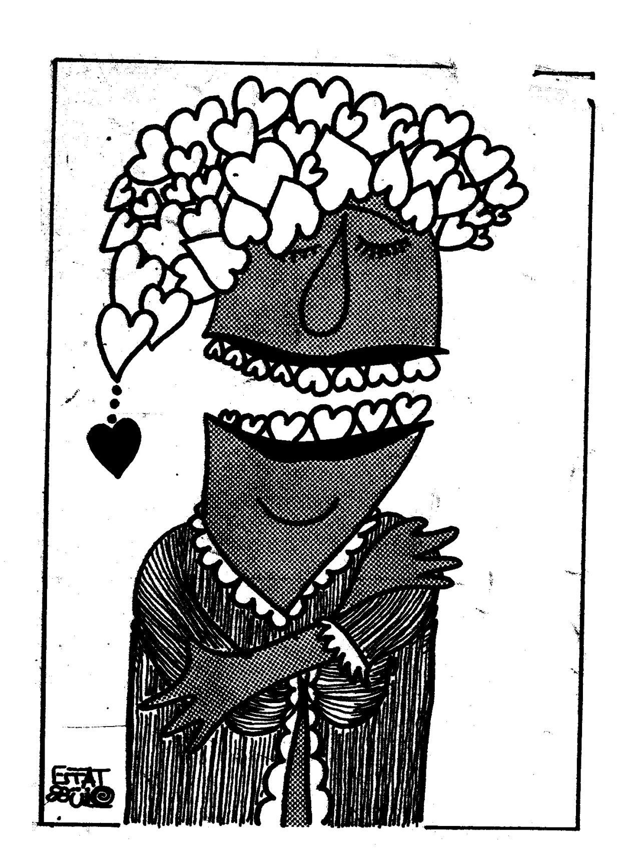
اشراب الرجل بعنقه وهو يضحك قائلا لمها :

— انت نسميك امراة وركها مالح ها ها ها .

نصل سكين بدا يشق الصدر منها ولكنه استله وهو يسالها :

— اتتزوجيننى ؟

الفرحة سدت ابواب انفاسها كالغصة تريد ان تنطق بكل انتصار :



« نعم اتزوجك » ولكن امها اسرعت محذرة : « إياك وإلا اصبحت زوجة له فانا شاهدة وهذا الخادم ايضا شاهد » لا الفرحة خرجت فى شكل الموافقة التى تبغيها ولا استطاعت ان تبتلعها وبقيت لثوان تهم بالقول ولا تبين ثم تركت ذراعيها تسقطان بجوارها على الاريكة التى كانتا جالستين عليها وفى طريق خروجهما من عنده كانت عصاها تمس فقرات ظهرها وهى تقول بحنق :

— متسرعة .. تودين إعلان قبولك لياخذها هو شرعى ولا اقوم إلا وانت زوجة فعلا له .

بتعجب صادق كانت مها تقول :

— يا خبر !

— كل همك فى الزواج .. من السهل جدا الحصول على زوج ولكن المهم هو الاحتفاظ به .

نبشت جرحها دون ان تقصد فقالت من فورها وكانها تدافع عن نفسها :

— وهل كان لى دخل فيما انا فيه ! ؟

— خرسيس لو لم يموتا لطلقت .

واستطاعت مها ان تشد كلمة واحدة بياس من حلقها وهى تسير امامها :

— لماذا ؟ لماذا هذا الجزم ..

اتمت والدتها سيرها بسرعة اكبر دون توقف عن الكلام « كانك لم تخلقى للزواج ، لا أدرى ما الذى بك .. لكن دائما من لهم دقة وجهك وتكوينك يكونون على درجة عالية من الضجر .. انظرى إلى فتحة انفك صغيرة جدا لا يمكن معها إلا ان تكونى زهوقا والزواج صبر واصطبار » ..

ليلتها تقلبت مها كالمحمومة على جنبيها .. الحجرة حالكة السواد ولكنها ترى حتى ذراتها السابحة وهج عقلها يجسدها لها . دبيب قطة على ابعد سطح تحسب خطواتها هل كان عليها ان تكون

اكثر صبرا واصطبارا مع ابى رجاء ابنتها الثانية ؟ ولم يكن امامها مفر من ان تقوم قاعدة ولم يكن امامها مفر كذلك من ان تواجه كلمة امها « لو لم يموتا لطلقت » تسترجع بدقة متناهية طفولتها لتعرف انه كان بداخلها وبشكل متلاحق امان وطموحات تدفعها للتطلع إلى ما وراء الأفق .. هناك فى البعيد شىء ما ينتظرها ولا تدرى ما هو عمل ؟ ام نجاح ما ؟ ابن ؟ ام حبيب ؟ هذا الإحساس كان يقلقها ، يلح على عقلها ، فتفقد مع هذا الإلحاح لذة اللحظة وتضيق بها لان المجهول الذى يطاردها ولا تستطيع ان تتبينه يقف هناك هذا الإحساس لم تستطع والدتها ان تعبر عنه ولم تنجح إلا ان تفسره بانها ضيقة الصدر وكانها لم تخلق للزواج « بك شىء غير عادى » وتعى مها انها تتعذب بطبيعتها التى تكبر معها ففيها الكثير من سلوك الخيانة التى لم تتبينها إلا حين رحلا .. دائما تخون من معه لا تعيش حاضرها لانها تنتظر من هو فى البعيد غير المحدد المعالم بل وغير المرئى هناك بعد الأفق .. هل هذا التكوين خلقت به ؟ ولكنها لم تفصح لأحد منهما عنه وتتساءل فى ليلتها تراهما وقفا على اعتاب درجة معينة من الفهم فرحلا ؟ واطفات النور كانها تهرب من المواجهة فتكاثف السواد والألم عليها وعادت ترى إلى اصغر ذرة فانتصبت مرة اخرى مطاردة من الربع الأخير من ليلها اقوى ما يكون الأرق لتكتشف ولأول مرة انه حين قررت توحيدة هانم والدتها تزويجها فجاة وكانت على اعتاب الفهم والتفريق بين الكراسة المرتبة والمهملة بين مباراة زميلاتها فى حل مسائل الهندسة ومجرد النجاح فى نفس المادة كان قرار والدتها هذا مناقضا لكل ما انشاتها عليه من ضرورة التعليم واهميته لتكتمل وتنضج . حين اوقفت توحيدة هانم اندفاع هذا الوعى داخلها بفكرة الزواج الفجائية من شدة خوفها عليها انبتت داخلها نوعا من الرفض المكتوم نسج معه احلام يقظة كانت مها تعيشها بود كبير وتدريجا الإحساس بواد الحلم سلبها ان تعيش واقعا مفروضا ولو كان بكل بريق ولمعان زمن الخطوبة .

الشعور بواد الحلم يتعقبها يتسلط على كيانها لا تتخلص منه وتهدأ إلا على شاطىء أحلام يقظتها بأنها ستعمل شيئا أو تحصل على شىء يكون لها فيه الإرادة وحرية الاختيار كاملة لكن ماهو بالتحديد عمل ، رجل ، ابن أو مال ؟ لا تدرى بعد أن تكشفت مها هذه الحقيقة سكتت نائمة .. أغوار وأغوار كانت تزورها تنزع عن روحها معاناتها إلى أن صحت على صوت أمها :

— ماذا قررت بالنسبة لفكرة التعليم ؟

وكان لمها الصحوة كاملة وهى ترد .

— نعم نعم أوافقك يا أمى .

● ● ●

• الفصل الثالث •

كليـة الفنون الجميلة ، وعبق متميز تسلل إلى انفها .. عبق جديد ولكنه بحق عمق حواسها وبطول حرمانها ، وبذلك الظما الموجود فى أعماقها تريد ان تتعرف عليه .. ان تمتزج به وسمعت « هى عبيطة ولا مجنونة يا أختى ؟ ! »

« من داخلها صوت يؤكد انها المقصودة ، وبسرعة كانت تتلفت وباتساع عينيها كانت تحتوى من قالت هذه العبارة من شدة التفاتها لامست اطراف شعرها المسدل من يقف خلفها وبدا له ان يبادلها المداعبة فشد خصلاتها بقوة . كان الألم محسوسا إلا انها ابتسمت فلوت الأخرى من شفتيها وقالت لمن معها :

— الم اقل انها مجنونة ها .. ها .. ها ..

بلا تفكير كانت مها ترد عليها :

— انا مجنونة ؟ ! بل قولى انى مبهورة بهذا العالم الذى بدات اولى خطواتى فيه ..

كلية الفنون الجميلة .. هل هو افقها المنشود ؟ ولم تتوقف مها لتتساءل اكثر فيكفيها ان هذا العالم الصغير شغلها عن نفسها الموجودة وسط عالم مخيف الاتساع .. عالمها هنا تعرف ابعاده تعرف فيه غدا لها وتحب حلم امسها فيه .. مجتمعها هنا تفهمه لأنه مجرد جزء من الدنيا .. أما الدنيا التى تحتويها بمجتمعها هذا فانها شديدة القسوة تكثر فيها الضربات المفاجئة .. الدنيا لا حدود لها .. وعقلها يرفض حكمتها لانه يحار فيها .

هنا تعرف مها طريق المقدمات لأى نتائج تحلم بها فعلى قدر جهدها الذى بذلته للحصول على معادلة للثانوية العامة امكنها كما قالت امها تماما الانتظام فى الكلية التى اختارتها . هنا كل عمل محسوب وله جزاؤه الفورى .. من داخلها صوت يؤكد لها بان كل ما مر بها كان جزاء هو الآخر لما فعلت وبهدوء كانت تحدث نفسها « لا لا ما فعلت لم اكن أستطيع معه التغلب على مشاعرى .. كان كل شىء خارجا عن إرادتى لأنه يمس منطقة شديدة الفوران او فيها موات الثلج البارد اما فى هذا المكان فكل شىء يمس العقل والمنطق .. من قال ان القلب اشد رحمة من العقل ؟ قلبى تلك المنطقة عاتية الدوامات أرفض بها أشياء رغم برودة عقلانيتها ! اما هنا فكل شىء « يلزمه العقل ولذلك فهو واضح بعيد عن تلك الأهواء والأنواء والدقات المبهمة .. »

★ ★ ★

هناك نوع من المصالحة تم بين مها وبين رنين الهاتف .. يدق فتتجه إليه بتلقائية وثبات تتذكر عبورا ما كان عليه حالها من شهور حين كان يدق فتشعر لبرهة وكان عروقها جفت ثم تعى انها تلهث بسرعة كبيرة فالقادم دائما مخيف .. تخاف مها مما سيقوله القادم .. اما اليوم فهناك من يتواصلون معها ليسالوا عن سير دراستها هل تنوى الاستمرار ؟ وهل تجد صعوبة ؟ تساؤلات ودية تشعرها بالاطمئنان ومن خلال تبريرها لكل ما تفعل تستمد هى نفسها قوة مضاعفة تساعدها على تطبيق ما تقول ، قد تبدأ مجرد مدافعة عن وجهة نظرها ثم تكتشف اثناء الحديث مبررات جديدة للتمسك المستميت بما قالته والذى ربما لم تكن تتصور ان لديها كل هذا القدر من الإصرار عليه ، والناس من حولها تبهرهم محاولتها عمل شىء لشق طريق جديد لم تحاوله من قبل .. فلقد كان نبأ زواجها يعنى ان انسانا نفذ فيه بالأمس الحكم بالاعدام .. وبالتالى كان خبر زواجها من خالد يعنى انه الرجل الذى سيشنق غدا فتعودوا ان

يدققوا النظر فى المحكوم عليه يحسبون له الأعياد والمواسم ليؤجلوا وحين كانت تضيق بهذا الهاجس وتقوله لوالدتها « يا أمى يعذبنى هذا الإحساس » كانت توحيدة هانم تقترب بوجهها اكثر ما يمكنها منها فتبدو عيناها من خلف نظارتها اكبر من حقيقتها وهى تقول لها :

— بلهاء .. هكذا الحياة .. ما جرى لك اخف الف مرة مما لو ..

— من ماذا يا أمى ؟

— تصورى لك طفلة متخلفة عقليا او جسديا وابوها يحتضنك كل مساء دائما حجة والدتها تريحها مما يثقل على روحها .. تواجهها بواقعية ومنطق تاخذ بيدها بقوة وبلا كلل « ما حدث قد حدث لنفتح صفحة جديدة .. لا يجب ان يجتر الإنسان الناضج الألم والبشر كلهم كذلك ايضا .. ينتظرون دائما أن تنبت السيقان بعد ان احترق البستان .. الناس ولعون بالخوارق عين تعرف الفناء والأخرى لا يخبو الأمل منها فى غد ، لابد ان ياتى عاجى اللون .. فالحياة لذتها فى الصراع والناس فى حلبة الحياة يضيقون الحلقة حول الصريع ، يصرخون يزمجرون لا مشاركة منهم له ولكن ليستجمع نفسه ويقف من جديد حتى لو كانت حياته ثمنا لذلك . يحبون الموت وقوفا ! » ولكن هل وصل ابنتها هذا المفهوم .. ان أعلى درجات استيعاب مها للحياة ان ترضى باى قضاء مفروض ولو كانت ترفضه ..

— انه عالم غريب يا أمى !

— اى عالم ؟

— كلية الفنون .. فيه الموهوبون و ..

— حـــاولى ..

— انا لست موهوبة .. انا ..

— انت الإنسان .. انت الإرادة التى يجب ان تستطيع ..

— كيف ؟

— لانه بالكشف والتشريح لكل عقول المبدعين والفنانين وجدوا انها لا تزيد فى تعاريجها أو فى ثناياها عن اقل عقل لاتفه .. اقصد لاضعف الناس يا ابنتى ..

وابتسمت مها لان امها تناديها يا بنيتى بدلا من يا بلهاء .

★ ★ ★

خالد زوجها يحترم إرادتها معه تحس انها شىء إلا انها دمية وجدت قصيرة هكذا لتكون دليل التنوع فى هذه الحياة .. انها مهما كانت اقصر نبتة فان لها وجودا محسوسا فاغلى الزروع لا يعلو عن الأرض كثيرا ، بل هى بعينها التى تعطى الإحساس بمساحات الأخضر السامى ، وكان خالد يعتبر فترة تواجده معها فترة للراحة والترفيه وهى تتمادى فى إرضائه تحبس الأنفاس ولا تخرج الزفرات مهما حدث لان حياتها معه والتى تحبها كثيرا ولان احتمال أن تسلب منها شىء وارد . هذا الخيط الرفيع الذى يفصل بحدة بين قمة النشوة وحضيض الموت كانت تحياه الليلة إثر الليلة .. هامسة ساعاتها فى وجوده حتى صوت عصا امها لا يسمع فعلى رؤوس اصابعها كانت تضع لها قطعة المطاط تعرف اين هى ملقاة هنا او هناك . كانت مهنة خالد تفرض عليه نوعا لا تكفيه فيه الجهود المضنية فالمرضى والمتاوهون هم ضيوفه الدائمون لا يأتون إلا بعد استفحال المرض واستفحال الغضب واستفحال الأمل فى قدرته على تخليصهم مما هم فيه وتهمس مها .. :

— يداك ملمسهما هش !

فيدقق النظر فيهما ويأتى بحركته العفوية او المقصودة والتى تفتن بها مها ويقول باسما :

— هكذا أيدى العظماء .

— ليس للعظماء مواصفات شكلية هكذا تقول امى دائما ..

فيرهف باهتمام :

— وماذا تقول ايضا ؟

— تقول بان العظمة منشؤها طريقة التربية ثم طريقة تناولنا للحياة بعد ذلك ..

— هذا صحيح ..

معها لا يندفع فى اى مناقشة لمجرد الكلام كثير التقدير لآراء والدتها ودائما ما يقول عنها « انها سيدة بارعة ولها شخصية قوية » ..

كان يستهويها فيه يسر إقناعه . معه تشعر انها امراة لها إرادة فاصرت ان تتزوجه باختيارها ، وقتها لم تكن موافقة توحيدة هانم كاملة كانت تفضل الاقارب خاصة لوجود منى ورجاء فكان رد مها الدائم « دعونى مرة اختار » كان خالد قد حضر إليهم حاملا لفافة دواء بعثت بها إحدى صديقات امها من انجلترا دواء مقو للذاكرة والآخر مجدد للخلايا .. جلس طويلا يناقش امها فى مكونات الدواء واكتشفت مها انه يعرف الكثير عنهما ، وبعد زواجهما عرفت ان مجتمعه الكبير يسع كل الأسماء كل صناع الحياة ياتون إليه روح الله تقوى إصابعه فيخلق المستحيل .. يصل حياة وقليلا ما يقطع او يبتر حُياة هذا المجتمع الواسع لا مشاركة لها فيه انها اسيرة حدود بيتها وهو ياتيها ليغتسل من تعب النهار وكثيرا ما تساءلت « ما الذى يحبه الرجل فى المراة ؟ هل يحب مشاركتها لمستواه الفكرى او حتى محاولتها هذا ؟ أم انه يفضل من لها فكر .. يعرف متى يصمت مع ان الصمت فى لحظات كثيرة يكون ابلغ من اعلى الأصوات وان استخدامه ليعتبر من اعقد الفنون » والصمت الذى بينهما تربى متانيا هادئا ساعد عليه نوع من الياس من جانب مها ولكنه ياس لا يشل رغبتها كاملة ما دامت امها من خلفها تدفعها بطريقتها الفريدة .. ياس صنعت معانيه من عبارة (فانى) من داخلها (قناعة) بان كل شيء يصرخ بالفناء والفناء للإنسان فقط هى اقوى حقيقة . اطلال الإنسان تبقى ويذهب هو إلى المجهول يبقى كتاب قراه او ملابس كاكية اما هو نفسه فيذهب لا بقاء له .

يبقى حذاء او بطاقة تحمل الاسم والعنوان يضاف بينهما بهدوء مفتعل ورقة تحمل معنى السفر ويسمونها جواز مرور إلى العالم الآخر وتسقط صلاحية الجواز بعد ذلك فهو لمرة واحدة فقط !! وتتساءل مها هل الحقيقة هى الصامتة فينا وما الثرثرة إلا الزيف ؟ ودوما كانت تجيبها الطبيعة كما كانت تماما وهى طفلة تجد لله شكلا فى وجه القمر ، الشمس كحقيقة لم تثرثر يوما ولا قمر وهكذا الوعد بانها ستظل صامتة لانها الحقيقة ويوم تستنطق يكون انتهاء الخليقة فلا داعى لان تسأله عن مجتمعه مهما كبر لا يهم لتبقى فى الحدود التى اختارها لها .. المهم دوام خالد لها فى حياتها باى شكل فكل ما تتمناه هو الدوام .

★ ★ ★

علمت مها بعودة خالد اليوم .. على اطرافها الدقيقة تنتقل هادئة حتى لا تحدث صوتا على تلك الدرجات الخشبية التى تفصل بين حجرتها وحجرة امها تنوى ان تلقاه قبل ان يصل إلى اعتاب بيتها فتتسلل إلى الطريق رغم تحذيرات أمها الدائمة « إياك صدرك ضعيف » .. تتفهم وجه القمر ترى السحابات تتحسس وجهه على مهل كانهن لا يردن مفارقته ، « ترى هل يحدث هذا لانه ساطع الضوء فلن يكون لواحدة فقط مهما تمرغت حوله وأمامه ان القمر يجعلها تمر امامه وهو على ابتسامته وضيائه ليسلم وجهه إلى اخرى طريقته واحدة مع السحابة الشديدة البياض والأخرى الداكنة » وهى على وقفتها تنتظره بين شجرتين تتساءل مرة اخرى « ترى هل تتصور إحداهن انها تحجبه لنفسها تفتح ذراعيها كانها لا تعى ان لها بعدا محدودا اما هو فلا نهايةولا حدود لأشعته » .. على وقفتها تنتظره .. صدرها يخفق اضطرابا .. او تارة تنبئها بان البرد قارس فتقفز فى مكانها خمس قفزات لتشعر بالدفء فصرخت اصابع قدميها وجعا « فكرة ان يخلق الإنسان بلا اجنحة فكرة ظالمة » .. ورفعت وجهها إلى القمر كانها لا تشبع من رؤيته وحين

اغمض عينيه واسدل جفنيه ومرقت سحابة داكنة بإصرار من امامه قبل ان تعي مها انها حجبته عنها كان نفس الضوء يسكن خصرها .. دفء وصلها تشد رقبتها من تصلبها نحو القمر لتوقن ان خالد وصل دون ان تشعر به مقتربا بعربته مضاءة وبقفزة واحدة كانت وجها لوجه معه يضاحكها قائلا :

— انفك بارد يا قصيرتي .

— اكثر من كثير وانا مزروعة هنا .

— اود ان اعرف ماذا ترين في القمر ؟

— احسده . فكل هذه السحابات تدفيء وجهه وانا باردة !

— اصنع لك سحابات مثلها

يلف حولها ينفث هواء ساخنا من فمه فيصنع ما وعدها به .. فشعرت بالدفء وثقل الغطاء .. و .. و ..

وبهمس يقول لها :

— تامري ان اصعد إلى سمائي ؟

— اي سمـــاء ؟

— بيتك سمـائي ..

● ● ●

● الفصل الرابع ●



ذات صباح وجدت امامها .. سكرتير خالد يشد بين يديه كلبا ورسالة تقول « إعتنى بهذا الكلب » فسألته :

— يقصد من ؟

— يقصدك يا سيدتى .

— واين خالد ؟

— الدكتور سافر مؤتمر هام .. يهديك هذا الكلب و .. و ..

كانت طفلتها منى قريبة منها ففتحت عينيها مستطلعة واندفعت بعفوية شديدة تضع اصابعها الرفيعة داخل عينيه تتعرف عليه واخيرا تحاول ان تركب ظهره فانتفض وافقا من رقدته وبدا عاليا اكثر مما تحسب .. حرك اذنيه ووجههما فى نصف دائرة فارهفت مها سمعها وعلى دقات عصا والدتها كان يسود الحجرة صمت كامل .. رفعت عصاها وهى تلف حوله فلم يتحرك :

— نوع اصيل للحراسة :

— بعد ان اعلنت رايها بهذه العبارة كانت مها تمد له يدها بوعاء كبير مملوء لبنا فرمقها بعينيه الحمراء فقط .. وضعت الوعاء امامه فاتى عليه كله مدت يدها بفرح تلتقط الوعاء لتملأه له مرة اخرى وهى تستدير خارجة إذ بقفزة واحدة كان الكلب يقضم كتفها صرخت والوعاء يتدحرج على ارض الحجرة وبقوة اختطفت ابنتها من امامه اصغر من ان تحتمل قضمة كهذه والطفلة رجراجة كالعجينة بين يديها لينة تلتصق بكل ما يلمسه جسدها من جسم امها الفزع انتقل إليها فصارت تتمرغ براسها من الكتف اليسرى إلى اليمنى ومها تربت على راسها بشعيراتها القليلة تحاول ان تهبها مالا تملكه .. الأمان :

— امى اهذا كلب مسعور ؟
— ليس شرطا .
— إذن هو شرير ؟
— هو حيوان
— إذن يعادينى ؟
— أول انطباع اصدق انطباع
— ماذا تعنين يا أمى ؟ !!

ودق جرس الهاتف صارخا .. سمعته ضاجا .. امتص قدرا من مزيج الرعب والدهشة اللذين فى داخلها ..آثار خمس اسنان على الأقل ترسم دائرة على كتفها التى انزلق من عليها قماش ثوبها .. واختطفت البوق كانها تستجير به كان استاذها فى الكلية الدكتور عودة ، وبسرعة تحاول ان تستعيد نفسها وهو يذكرها بان وجودها هام لسماع المحاضرة القادمة لان فيها تكملة واستكمالا لما يبنى شخصيتها الفنية ويصقلها و .. و .. وتعلو ضحكة مها وتنسى ما كان ..

الدكتور عودة نوع من الأساتذة الذين يعطون بلا حساب وجوده فى بيته امتداد لعمله واتصاله بتلاميذه . بعد أن توطدت صداقتها به قال لها يوما بانه يتعمد ان يخرج من حجرته ويتمشى فى ممرات الكلية ليلمحها ولما سالته مها لماذا لا يناديها . ظل يشرح لها بانه يحب مشاهدتها دون أن تدرى لانها التجسيد اليومى الحى لمعنى التعبد فهى لا ترضى الخروج من الكلية إنما تنتزع نفسها انتزاعا ..

« ولابد انك يا مها تبذلين مجهودا مضنيا حتى تنفصلى بروحك عن هذا المكان » لم يعلم الدكتور عودة كم عادت ودارت حول هذا المكان وكثيرا ما ووجهت بنظرات متسائلة من زملائها وهى تضيق واحدهم ينبئها بان الغد اجازة رسمية فتتسائل بصدق :

— الا يسمحون بدخول الطلاب فى الأجازات !! ؟؟
— ولماذا .. إستريحى يوما يامها !!

انسلت مها من بينهم .. ظلت ترجع بظهرها والاحساس يغزوها بأنها لا تسير بقدميها إنما تعلو وتعلو كتابها واوراق محاضراتها التى تضمها بحرص إلى صدرها لا تحس لهما بأى ثقل كأن ذراعيها تحتضنان سحابا لا ثقل له ورغم عشقها لهذا الإحساس إلا انها تنبهت فى نفس اللحظة إلى أنها تستجلبه بإرادتها فاقشعر جسدها برعدة سريعة لم توقف معايشتها لهذه المشاعر فترى الأشجار قد بالغت فى احتفائها بها الأحمر عن يمينها والبنفسج لون ما عاد يثير الشجن داخلها هل تغير الهدف من خلق الأشياء ؟

اللون البنفسجى فى رؤوس الأشجار ينعكس على مساحات من ماء فى الطريق فيهبها بسخاء لونا تنوى أن تخلطه بألوانها ؟

كان زملاؤها قد سبقوها وتواروا ابعد من باب الكلية الحديدى ومع النسمة التى وشوشت لها بأنها ستمطر اجتاحتها رغبة فى البكاء واصوات هاجت فى رأسها تبتكر موسيقى تزيد من توحدها مع الطبيعة . كلها عيون سيالة لانها تحس بوضوح قدر الحنان الذى يحوطها من كل جانب شىء ما يتخللها يغزل كل هذا العطاء من حولها ! عطاء من نوع لا تستطيع أن تميزه أو تصفه فأبكاها . رد فعل بكائها يرتد داخلها وداخلها فسيح يختزن كل مشاهد الطبيعة من حولها ومازال بداخلها مذاق شىء جليل تحسه طعم غريب يجتاحها كالاعصار تماما ومن غرابته نبت التساؤل وهى على وقفتها « من هو الذى يمنحنى بسخاء كل هذا العطاء ؟ من هو الصانع لى كل هذا . ولحظاتى هذه هل استجلبها بإرادتى » ؟

تنبهت إلى غيبة زملائها فاندفعت تأخذ مكانها بينهم واستقبلها الدكتور عودة بعينيه المقدرتين من خلف نظارته السميكة وتلوى إحداهن شفتيها فركزت مها عينيها على أستاذها وصلتها رسالته المقدرة تقطر صدقا وهو ينبهها إلى أن تسمعه جيدا وأن يدخل كل ما يقوله إلى رأسها جيدا لانها رسالة المعلم« ورسالتى جزء من النبوة أقصد جزءا من عمل النبى » ..

كلمة النبى التى قالها الدكتور عودة عابرة كما كان يقولها فى اغلب محاضراته وصلت مها بتلقائية وبلا معاناة إلى ماهو أبعد من النبى .. إلى السماء .. بل إلى مابعد السماء ، إليه فسقطت بكلياتها فى مفهوم كلمة الله .. الله الذى منحها كل هذا العطاء .. كل هذا الجمال والوعى به ولحظة بصيرة تشبعت فيها بمفهوم ما من رأسها حتى اطرافها فلم يكن امامها من بعدها إلا أن تندفع خارجة وعلى السلالم وقعت منها ورقة لايهم تستطيع أن تكتب غيرها . وفى الطريق كانت تنادى عربة اجرة وقبل ان تلقى بنفسها داخلها كان زميلها شادى يضع يده على كتفها :

— مدام مها

— متعبة اريد ان استريح

— مها ارجوك الدكتور عودة ينتظرك و ..

وحمل شادى عنها كتابها واوراقها وسارت بجانبه صامتة وعلى اول السلم بادرها :

— هل هناك ما يضايقك يا مدام ؟

— وهل لاحظت ذلك ؟

— نعم بالتاكيد فقد رأيتك وانت تبكين

إنسحب التساؤل على شفتيها :

— وهل بكائى كان دليلا على غير سعادتى

ضحك فجاة وهو يقول :

— وهل هناك سعادة تبكى الانسان ها .. ها .. ها ..

وظلت مها تحاول ان تقرب مفهومها وما شعرت به إليه إلا انه واصل ضحكاته وهو يقول :

— صحيح اننا ندرس الفن .. والجو المحيط بنا كله فنون ولكن ليس معنى هذا ان نفقد عقولنا ها .. ها .. ها ..

من اليوم الأول لها فى الكلية وهى تشعر بنوع من الألفة مع زميلها شادى سرعان ما تجاذبا الحديث وكانه يعرفها من سنوات .

دار بها يعرفها كل حجرة ومدرج حتى انواع الزهور كان يعرفها . عدل لها اكثر من مرة جدول المحاضرات كان يعطيها اى معلومة تصله وكان يعطى الآخرين كذلك . وهما على وقفتهما كان الباب يفتح ويدخل الدكتور عودة فانسحب شادى خارجا .

— ماذا جرى لك يامها اثناء المحاضرات كنت ترتجفين ..

— .. ..

فواصل الدكتور عودة كلامه وكانه لا ينتظر منها ردا :

— لقد تصبب العرق يبرق على جبهتك وشحب لونك .. أبصرتك تتضاءلين فاشفقت عليك .

الدكتور عودة ظل يشرح ماحدث لها ويصفه وقد أشاحت عنه بوجهها وارخت جفنيها كانها تساعد نفسها على الا تبوح بما فى داخلها . ظل يكلمها بإخلاص الأنبياء عن ضرورة ان تشركه فى كل ما يعتمل داخلها . النبى بإصرار يحاول ان يهدى روحها الحائرة ومها بدات فعلا تستجيب إليه وهى تسترجع مامر بها واخيرا قالت :

— داخلى اشياء تتكسر تلك الآلام والدوران فى نقطة معتمة يائسة ولكن الآن اشعر بمعان اخرى ولكنها غير واضحة بعد .

قاطعها الدكتور عودة :

— هل كنت تحبينها ام كنت تسعين بإخلاص إلى أن تنكسر ؟

— لم تكن لى إرادة فيها ولكنى سعيدة بانها تتفتت

قال بثقة :

— لكل شىء نهاية يا ابنتى

وكان ضالتها التى تبحث عنها فى هذه الجملة الخاطفة « لكل شىء نهاية » فقالت متسائلة بقوة :

— ولكن من هو الذى يضع النهايات ؟

— وهل هذا موضع سؤال ؟ !

— إذن قل لى ؟

— الله يا مها

— ولماذا اختار هذا التوقيت ؟
— لأن كل شيء لديه بقدر .. وله الوقت المناسب
وضعت اصابعها على فمها وخرج صوتها هامسا وهي تقول :
— إلى هذا الحد يشعر بي :
وقهقه الدكتور عودة عاليا :
— ها .. ها .. مازالت الطفلة داخلك يا مها وهذا من رحمته بنا
— إذن انا احب .. احب الله
وقبل ان تستدير لتخرج علا صوتها محذرا :
— مها .. قلت ان اشياءك تفتتت
— نعم
— إحذري والرياح تذروها ان تنبت لك آلاما اخرى
— ماذا تقصد ؟
— تخلصي منها بذكاء .

★ ★ ★

تقترب مها من نهاية العام الدراسي وخالد يهتم بأن يحضر لها انابيب الألوان والمعاجين بعد عودته من كل سفرة او مؤتمر ويرسلها مع سكرتيره في لفافة انيقة ولكنه لا يأتي وكلما همت ان تسال عنه ينعقد لسانها وتنشغل ومعها شادى للانتهاء من اللوحات التي تنوى تقديمها كجانب عملي واساس لتجتاز امتحان آخر العام :
— خائفة يا شادى .. هل سافلح في نقل ما في عقلي على اللوحة ، بل ترى هل سيتسع الوقت ؟ ؟ ؟
— ....
— شادى كل الفنانين رسموا المحسوسات من الجمال بالمقاييس التي يرونها ولكني انوى ان ارسم التجسيد الذى فهمته عن القدر .
— الفنانون رسموا كذلك معاني كثيرة فهموها ، رسموا آيات الانجيل والتوراة في عصر النهضة بالطبع لم يروها ولكن كان هذا تفسيرهم لها ..

ثم يقول لها :

— تعرفين ان هناك لوحة مشهورة جدا واظنها تهمك لأنها تجسيد لمعنى من المعانى إسمها الزمن .

ثم ضحك وهو يشير لها باصبعه :

— ليكن معلوما لديك أن ما اقوله إضافة لك وامرى لله .. اللوحة عبارة عن رجل عجوز جدا وقوى جدا قوة عتيقة بمعنى ان يديه معروقتان بمبالغة والتجاعيد بالآلاف على وجهه ورقبته يجلس بجوار كهف ويتكىء على عصاة .. اللوحة تعنى أن الزمن قديم وثابت وهناك فى اللوحة من يخرج من الكهف وهناك كذلك من يدخله والزمن باق ..

صفقت مها بيديها وهى تقول له وكانها عثرت على شىء هام :

— لو امى سمعتك لقالت بانه لابد على كل إنسان أن يكون التجسيد الحى لهذا الرجل بمعنى ان يصبر ويصمد ويصد كالزمن لا يتزحزح ولا ينحرف .

— إذن لماذا الخوف إذا كانت الفكرة واضحة فى ذهنك يا مها ؟

— إنى حائرة . فإذا ترجمت معنى من القرآن فانا بذلك احدد ما اريده وإذا رسمت قيمة فنفس الشىء .

— إذن ماذا تريدين ؟

— لا ادرى بالتحديد ماالذى أريده ! !

— إذا لماذا تصرين على تجسيد شىء غير محدد او ملموس باى قدر ؟ !

— لان هذا هو اليقين الوحيد فى هذه الحياة فكيف تقول إنه غير ملموس انه حولنا انه معنا ودائما .

لحظة تفكير وكان يقول لها بعدها :

— إذن هل انت متشائمة ؟

— على العكس تماما .. لقد اصبحت على درجة كبيرة من التفاؤل وما اريده هو اقل ما يمكن أن اقدمه له .

— لمن ؟
— لله .
— ها .. ها ..
— شادى . ألم تسمع كثيرين يرددون هذا أقل ما يمكن أن أقدمه وفاء للوطن أو الحاكم .. أو حتى المدرسة .
— هذا شيء عادى جدا ولكن لأنك ملتاعة مما جرى لك فانت و ..
— كلامك صحيح ولكنه جعلنى الآن ألمس نوعا من السعادة و ..
— هذا شيء طبيعى أن يصل الإنسان فى لحظات إلى قاع الشقاء ثم تدور الدائرة ليحصل على قمة السعادة ولو عاش مرة أخرى لتكررت معه الحكاية حضيض الشقاء ثم قمة الفرح .
— أليس هذا عطاء .. أليس هذا عدلا ؟
— إنها الحياة وهذا نظامها .
— إذن هناك من عينه علينا .. حين نشقى يبدأ على الفور فى توجيهنا إلى الخلاص من ألم الألم ننفذ إلى الراحة ..

★ ★ ★

وفى عصر أحد الأيام بينما مها ترحب بمقدم خالد الى بيتها تتعلق برقبته كعادتها فى ذلك إذ بها تشعر أنه يبعدها عنه برفق مقصود أكثر من مرة .
فبادرته :
— أول مرة أراك ترتدى معطفك الأبيض خارج العيادة؟ !
فرد عليها باقتضاب :
— يبدو أننى شخت فصرت أحس بالبرد .
تنوى مها أن تضحك فالدوافع داخلها كثيرة وأولها أن خالد أتى اليها بعد طول جولات وسفرات ولكن أوقف تدفقها معنى الضيق الذى تبينته من بين طبقات صوته .. فتراجعت صامتة وعلى مهل كانا يصعدان الدرجات الخشبية القليلة وفى غمضة عين كان الكلب يمرق من بين ساقيه أنفاسه لاهثة يقفز سلمتين لينزلهما .. يهز ذيله

في سرعة وقوة .. يشب برجليه كأنه يطاول خالد ثم ينفض جسده ويصدر أصواتا مثل الهمهمات فتوقف خالد وهو يربت على رأسه ولما شعر الكلب باستجابته له بدأ يهدأ وتخفت الهمهمات والدورات والقفزات التى يأتى بها كلها فى آن واحد .

— مها هل تعتنين به ؟

كان سؤاله بلا معنى فلم تجد مها إجابة له . ولا إراديا وضعت يدها على رأسه وما أن فعلت هذا حتى كانت يدها بما تحمل من بقايا الألوان داخل فمه ثم أفاقت على صوت خالد « لا لا ياركس » ففتح الكلب فمه على وسعه وشعرت مها بلعابه ساخنا لزجا وهى تخطف يدها بقوة من فمه ومذهولة من فعلته صرخت :

— وتسألنى إن كنت أعتنى به ! هذا الكلب منذ اليوم الأول لحضوره ناصبنى العداء وقضم كتفى و ...

— ومــاذا ؟

— وكان فى وسعى أن أقتله و .. و ..

فعلة الكلب هذه لم تثر فى خالد أى قدر من الدهشة أو الخوف على مها بل على العكس وضع يده فى جيب معطفه الأبيض وحدق فيها لبرهة كان على لسانها ألف تساؤل إلا أنه أشاح بوجهه عنها وطأطأ رأسه كأنه يبحث عن شىء وقع منه وهو يردد هامسا :

— لقد تغيرت كما كنت أتوقع وأحسب .

كانا على وقفتهما فوق الدرجات القليلة التى تكاد تفصل بين حجرة مها وحجرة والدتها ، والكلب شاخص إلى خالد وقد احتفظ بذيله بين رجليه ثم انصرف بلا جلبة .. لم تستطع مها أن تعود بنفسها إلى إشراقها الأول لحظة رآته بقيت مكانها كأنها فقدت مرونة الحركة وفقدت الرغبة كذلك فى الصعود إلى حجرتيهما . لم يحاول خالد إزالة حرج الموقف لم يتحرك من فوق السلمة .. كأن المكان جديد عليه كأن الدكتور خالد قد فقد كثيرا من تلقائيته مع مها شدة حساسية وفدت عليه زلزلت كثيرا من لقاءاتهما .. باعدت مابين

لقاءاتهما وحين كانت مها تساله عن سبب ذلك لا تسمع رده المتوقع منه بانه لا يريد ان يقال بانه قد اهملهم لما تزوجها وإنما كثيرا ما يرد عليها فيما يشبه العتاب :

— الواقع انك لم تدعونى للعشاء فى بيتك قبل ان تنهى مكالمتك معى .

— خالد .. وهل تنتظر منى الدعوة لتاتى لبيتك ؟

— اخشى ان اشغلك عن لوحاتك .. او عن شادى او عن الدكتور عودة او .. او ..

وطال صمتها مصلوبين بهذا القدر من الملل على الدرجات القليلة واخيرا اختار خالد ان يهبط مفسحا مكانا لمها ودلفا إلى حجرة صغيرة فيها لوحاتها قبل ان تفتحها انفلت الكلب يسبقهما وما ان اضاءت النور ونفذت إليها رائحة الألوان والقماش المشدود حتى عاد إليها إشراقها المسلوب .. تبحث عن وجه خالد ، فاتى بحركته المقصودة او العفوية والتى تحبها من عينيه وعلى صدره كانت تريح راسها وهو يربت على ظهرها إلى آخر شعرها .. توقفت يده حين لفت نظره انها ترسم معنىً لم يره من قبل .. ظل يسمعها وهى تحكى له .. وجه نظرها للتعبير بالفرشاة واندفعت تحكى له عن الرجفة وموسيقى الكون التى تسمعها .. حكت له عن حبها للكلية وذكرت له نصيحة الدكتور عودة بان تلقى ما تكسر للرياح ولكن بذكاء حتى لا تنبت لها اشواك اخرى . لأول مرة تتكلم وحدها كل هذا الوقت تكشف له كل خلجة من خلجات نفسها .. فجاة انتصب واقفا واضعا يده فى جيبه يشد الكلب من جلد راسه الذى تكوم فى قبضته سائلا :

— ماذا يقصد استاذك بكلمة ذكاء ؟

فكرت برهة ولم تستطع ان تجيب او لم تجد سببا تجيبه به فازاح الكلب بقوة من راسه ، فتكوم على الأرض ، ثم سرعان ما استجمع نفسه واقفا على رجليه الأربع بخطوة واسعة .. اقترب

منها خالد شاخصا فلمحت صورتها تنعكس على حدقتيه قصيرة .. قصيرة رعشة واضحة فى جانبى صدغه كانه يمضغ شيئا .. عرق نافر ينبض دون توقف على جنب واحد من وجهه ناحية جبهته وبلا سبب مد رقبته اكثر فبدا عالى الطول يجسد لها قصرها بعفوية نقلت عينها كانها تقيس طول الكلب بطولها وصرخ فيها :

— إبحثى لك عن رواية اخرى غير حكاية الفن وأوهامك هذه ..

خرج صوته لا بشريا كانه آلة عملها ان ترفع وتلقى بالحجارة كهربائيا ، يصرخ بكلماته يقذفها بحجارة فتحس بانها تدك إلى باطن الأرض وفوق هذا ينوى كلبه ان يهاجمها فاوقفه بحركة من يده وهى على وقفتها كان الاعتقاد يملؤها بان خللا حدث فى اذنها لابد انها فقدت التمييز بين الأصوات وقدرتها على الوقوف ضاعت منها فارتمت جالسة تفتح وتغمض جفنيها مرات لتفيق على خالد يربت عليها :

— هذا من خوفى عليك .. إياك والاتجاهات ..

فتساءلت بصدق اكيد :

— أى اتجــاهات ؟

جلس الدكتور خالد على ذراع مقعدها واقترب بوجهه منها بهدوء :

— الم تسمعى .. الم يعلمك استاذك مبدأ الفن للفن .. والفن للحياة .. وتلك المدارس التى ..

— علمنى طبعا .

— إذن اسالك لماذا توظفين الفن لغرض آخر غير ما جعل له .

— لا اعرف .. لأنى لا افهم ما تقول .

— مالك والدين وتلك المتاهات يا مها ؟

— اى متاهات .

— ارسمى للرسم .. هل انعدمت الموضوعات و ..

لم تكن مها على وعى بانها تبكى إلا ويدها تصطدم بوجهها وهى

تؤكد لخالد ان ما ترسمه هو مافى رأسها دون هدف معين مسبوق بمتاهات طويلة ما ترسمه دليل عرفانها له وحده لله .

★ ★ ★

ترك الدكتور خالد المنزل بلا وعد على لقاء ومها لم تتحرك من جلستها .. شئ ما يهدها ولا تقوى معه حتى على حمل إحدى ابنتيها كان لهما ثقلا غريبا .. ثقلا ياكل طاقتها وتحس معه مزيجا من الغثيان والدوار اضعف من ان تبكى إنما الدموع تتدفق من عينيها تدفقا وكلما عبر بعقلها وجه خالد غاضبا تستجب له بكل هذا الهمود فتغرق حتى النخاع فى إحساس بالاكتئاب .. ميكروب [illegible] يتكاثر داخلها كلما عقدت اشتات عزيمتها على أن تتم لوحة من الاثنتين موضوع امتحانها كان ذراعها موصولة بتيار كهربى .. وهذا التيار يسرق منها كل إرادة فى ان تغمس فرشاتها لتخطط لأى معنى فى راسها . رغبتها فى الاستمرار وقعت منها فى بئر بلا قرار وفى كل مرة تقرر ان تنتشلها من البئر تخرج بعد بدء المحاولة بالاحساس الكامل بالاستلاب اصبح كل ما تنوى عمله لا تعمله ! صار كل ما تحلم به كانه ليس ملكا لها .

الهاتف يدق .. دقاته تسمعها كالنذير وترددت للحظات طويلة فالرد يعنى انها تتواصل مع عالم خارجى ولقد فقدت التواصل حتى مع نفسها قطع خالد بثورته انسياب الحلم بالوانه داخلها ففتحت فمها تاخذ اوسع شهيق كانها تستعين بالأنفاس على اجتياز اللحظة .. والهواء ساخن يدخل حلقها ولا يصل إلى قرارها .. والدق مازال ونعم ترديها وكان السؤال هو : هل انتهيت ؟ الامتحان بعد غد ؟ لا وقت ولا .. صرختها مدوية .. كل ما استطاعته هذه الصرخة التى جلبت بعدها أمها أمامها تسبقها عصاتها وعلى صدرها كانت تهذى بعبارة واحدة « يا ويلى يا ماما امتحان التخرج بعد غد يا ويلى اللوحات لم انته منها » ..

— مادامت لك إرادة فانت تستطيعين اللحاق و ..

— واين إرادتى يا امى اين انا يا امى ؟
— انت موجودة ولكنك فلاحة ضعيفة و ..
— ولكن خالد غاضب و ..
— مالك لينة وضعيفة هكذا .. الرجل فى حياتك محورى وانت تدورين حوله .. لن تفلحى .. هذا اقل جزاء لك !
— كيف ؟
— انا اراقبك من ايام ! ما هذه إبنتى وقد حاولت ان اعلمك القوة والإرادة .. ان لا اعترف بالمستحيل ولقد حاولت معك ولكنك فلاحة ضعيفة وعاطفية كذلك ..
— انا فـلاحة ! ! ! !
— الم احك لك قصة جورج صاند التى ارسل لها شوبان ليراها وهو على فراش الموت فابت ابت رغم حبها ..
— انا ماذا افعل الآن ..
— اتركى كل شىء وانعزلى .. انا لا اكلفك شيئا لا إدارة البيت ولا حتى العناية بالابنتين ما الذى يعوقك ؟
— اصـل خـالد ...
— ماذا تطلبين منه .. ايمسك منك فرشاتك ويرسم لك !
— لا .. إنما يشجعنى ؟
— هذا هو مربط الفرس .. ضعيفة .. كلمة ترفعك واخرى تهوى بك إلى الأرض ..
— التشجيع مهم ..
— عليك بتشجيع نفسك يا بلهـاء .
وابتسمت مها بصوت مسموع لكلمة امها يا بلهاء » .
— اما زلت حقا فى عينيك « بلهاء » ؟
— طبعا فانت دائما فى حاجة إلى كلمة تشجيع يا للبلاهة ! !
— انا اقصـد ان ..
إقتربت توحيدة هانم من ابنتها .. احتوتها تحت ذراعها بقوة

واليد الاخرى تدق بها العصا دقاتها التقليدية :

— انتهى الآن .. لك من الوقت ٤٨ ساعة تكفى لتنتهى من لوحاتك فلا ينقصها إلا بعض الرتوش مادمت ..

— مادمت مــاذا ؟

— مادمت روحا تريد فلابد أن لك إرادة .. أين إرادتك ..

★ ★ ★

يومان لم تبارح مها مساحة القدمين التى تقف فيها .. قدرتها المستلبة منها والتى تفتقدها داخلها عادت إليها .. الشمس جسدتها لها بسهامها التى تقتحم حجرتها الصغيرة ، بينما تنقل لوحاتها من هنا او هناك ينسل من الخيش المشدود مسحوق لا تراه إلا على اشعة الشمس تكاد تلمسه فى شكل ذرات بالملايين .. تحاول ان تقبض عليها وتتخلل رائحتها انفاسها فيعود إليها جبارا عشقها لرائحة المعاجين والألوان . يومان واقفة فى مساحة قدميها وتوحيدة هانم بجوارها العصا بيدها والطعام باليد الأخرى :

— كلى جف لسانى وانا افهمك ضرورة الحفاظ على صحتك !

— صحتى غير مهمة الآن .. المهم ان انتهى يا أمى من امتحانى اولا ..

— صحتك يعنى نجاحك وبغيرها لن تصلى لشىء .

قالت بضيق وهى تشيح بالفرشاة :

— أوه يا امى أريد أن انجح فقط .

بسرعة كبيرة كانت عصاها وسط ظهرها فحاولت أن تدور لتلتفت إليها إلا انها ثبتت العصا بين إحدى فقرات ظهرها وهى تردد « انجح يا امى .. انجح فقط » بسرعة كانت مها تؤكد لها :

— نعم انجح فقط .

سحبت عصاها ترتكن إليها وقد علا صوتها :

— لا .. لا .. أحب الرضا بالقليل .

فقالت لها ضاحكة :

— هذه هى القناعة التى كنت ..

— القناعة فى اشياء غير الفن .. لا يجب ان تقتنعى فى الفن بحد معين .. وإلا فما الفرق بينك وبين اى دارس ؟ يا بلهاء وللمرة المليون انت ستكون لك مدرسة جديدة .. ام انك لا تعنين ما تفعلين ؟ ؟

— ها .. ها .. ها .. مدرسة جديدة بحالها ؟

— نعم هذا اتجاه فني جديد أن تجسدى تصورك بالفرشاة للقدر كما تتخيلينه انت فى شكل معنى محسوس .. لقد برع الفنان القديم فى الزخرفة وروعة الخطوط أما انت فتحاولين بالرسم ترجمة المعانى الروحية ..

— لم اكن اقصد يا امى ان ما اعمله شىء جديد .. إنما هذا ما اشعر به فقط منذ كنت طفلة .

فضحكت وهى تقول متذكرة :

— فعلا منذ كنت طفلة .. ومدرساتك بالإجماع يشكون منك .

— من مـــاذا ؟

— من حالة السرحان التى كنت فيها دائما كانت إحداهن تقول « مها دائما هناك مع القمر .. هناك مع القمر .. »

يومان بلا نوم إلا خطفا متقطعا وشادى يداوم الاتصال بها ليطمئن عليها وبعد آخر مكالمة جاءها يحمل عنها اللوحتين إحداهما تمثل نهاية الخليقة .. ارضية اللوحة لونها ازرق يميل للاظلام ثم يتدرج اللون اخف حدة إلى أعلى . فى جنب اللوحة الايمن جبل خر فوق الأرض ليصنع ارتفاعا مستعرضا وداكنا . اما الجبل الآخر فقد اقتلع من مكانه ليقف على احد اضلاعه وجموع من البشر فى ركن اللوحة الأيمن وعلامات الهلع تطل بوضوح من عيونهم وعلى الركن الأيسر من نفس اللوحة جموع بشرية أخرى ترى فقط بظهورها ورؤوسهم إلى أعلى فى مشيتهم سكينة غريبة ومن تحت الجبل الذى وقف على ضلعه يبعث اناس فرادى

ومجاميع . اللوحة فى مجموعها تعطى الإحساس بالمشيئة القدرية المنتظرة .. اللون الأزرق الداكن ممزوج بنقاء الأبيض يجعل الناظر إلى اللوحة يتناوب الإحساس داخله بين الضيق والراحة المنشودة من اللون الأبيض والذى تنظر إليه العيون الهلوعة والأخرى الآمنة ..

اما اللوحة الثانية فكانت لشابة جميلة يبدو ظهرها للناظر مستوردا برداء ابيض وملتفتة برأسها يمينا .. تصعد فى هدوء وعلى جنب وجهها البادى للناظر ابتسامة تحمل اكثر من معنى فى اسفل اللوحة مجاميع تنظر إليها فى دهشة ايديهم ممدودة ولكنها لا تصل للشابة . الصورة تعطى الإحساس بان كل هؤلاء لا يرتقون لمكانة الفتاة وكان ابتسامتها تقول « من كان منكم يتصور ان لى هذه المنزلة » ..

تفتش مها فى عينى شادى فلم تر فيهما اى رد فعل لكل هذا الجهد الذى بذلته !!

لم يقف امامها متاملا يسال نفسه ويقيس فى عقله إلى اى مدى جسدت المعنى الذى تحس به .. لقد كان اكثر ما اسعده انها انتهت من هذا العبء الذى شعر لأيام انها ترجىء الانتهاء منه وهما مرتبطان بحكم تقسيم المجموعات ان يتقدما للامتحان فى يوم واحد .

لم تنس والدتها ان تسقيها عصير الطماطم مع قرصين من الفيتامينات قبل ان يذهبا إلى الكلية وفى مدرج الامتحان كانت درجة الحرص والخوف داخل مها فى اوجها ارادت ان تعلق اللوحتين امام منصة اللجنة مباشرة وهمت فعلا ان تبدا ولكن ضرب شادى ارض القاعة بقدميه بحنق كبير لمسته قبل ان تلتفت إليه وصرخ بها :

— فينا من الاستغلال ؟ !

وقبل ان تجيبه كان يستعمل كل قوته العضلية فى ان يسحب المنصة من وضعها الدائرى ليجعل واجهتها مغايرة تماما لمكان

اللوحتين وقد بدت جبهته لامعة وخصلات شعره متناثرة عليها من أثر حبات العرق بسبب الجهد المفاجيء الذى اتى به ومازال بإصرار يشمر عن ساعديه .

بقيت مها على وقفتها لبرهة ثم قالت :

— انت ناوى تحارب ؟

متهكما رد فى سرعة :

— لا ناوى انقل طوبة طوبة من هذه القاعة ، هل توسطين عملك وانا اى كلام ؟؟

انت لم تنتظر لترى أين ساضع لوحاتك ثم ما معنى اى كلام ؟

— طبعا . ام انني سنيد للوحتك التى لم ولن تتكرر ها .. ها .. ها ..

ولم يكن من حل امامها لتهدئته إلا أن تقتلع لوحتها وتسندها إلى الحائط بجوار الأخرى وانسحبت مسرعة وهى تردد أن يطلبها من حجرة الطالبات بعد أن ينتهى ومرت الدقائق هناك ثقيلة .. حر لافح تحس به يشك جبهتها تفكر فى شادى فتهمس لنفسها « اف منه ومن صحبته المفروضة » ورغم تشتتها إلا انها سمعت وقع اقدامه تقترب فتشاغلت بالبحث فى حقيبتها اخرجت منها قطعة حلوى ابتلعتها وبعدها قطعة لادن تلوكها واقدامه مازالت تقترب وهى تنتظره .. كانت تتساءل : تراه أت سيرا على اقدامه من كوكب بعيد وماله لا يصل ؟ ومع أول نظرة لها خارج الحجرة كانت تصطدم بشادى ومن بين ضحكاته يقول لها :

— لقد خرجت من القاعة فلم اعرف ماذا تطلبين يا مدام ؟

— تركت لك الخيار .

— لك عندى خبر .

وهى على وقفتها تنتظر لجنة الامتحان وقابليتها للتوقع حاضرة يصطخب داخلها إحساسها بيوم الحشر الذى رسمته ويضغط عليها . بلهفة تساله ..

— اى خبر تقصد ؟
— يطلبونك لان اللجنة منعقدة ..
بخطوات وجلة كانت تسير إلى جانب شادى تبذل جهدا لتسير فى خط مستقيم .. حوافى ثوبها تتحرك على قدر اتساع خطواتها فتحجب رؤية مقدمة حذائها توقفت فجاة لترى قدميها من نظرة شادى المشدوهة .. واصلت السير ومن بين انفاسها المتخطفة كانت تساله ..
— مالهم بعيدون والطريق طويل ايضا ! !
— اى طريق يا مدام .. هناك مفاجاة تنتظرك ..
وكانت المفاجاة تعلن عن نفسها لقد علق اللوحة كما ارادت واعاد المنصة إلى مكانها فلمحته بطرف عينها .. كان الضحك يعتلج فى شدقيه وظالما لنفسه علق لوحتها الثانية متصدرة ايضا وتوالت اسئلة قليلة من اعضاء اللجنة يستفسرون عن رؤيتها .. نظرة من الدكتور عودة اراحتها ثم اذنوا لها بالانصراف وبقيت تنتظر شادى .. قهقهته العالية كانت علامة على وصوله .. إحساس يجتاحها بانها وضعت عن ظهرها ثقلا تعشقه وتنوء به فى نفس الوقت .

★ ★ ★


• الفصل الخامس •


EFFAT
88 عفت

في طريق عودتها وعند مدخل بيتها كانت مها تخلع حذاءها تمسكه بيدها وهي تندفع في خفة وفرح لتضع يدها بلا توقف على جرس الباب . صوت خربشات ووشوشة ما تحدثها إحدى ابنتيها بأصابعها اللينة .. تحاول أن تصل إلى فتح الباب .. أقصر من أن تمسك به ..

ومها طالت وقفتها امام الباب رغبتها كبيرة ان تصل إلى امها تنبئها بانتهاء الامتحان .. وابنتها مازالت تنقر الباب باصابعها المدببة ولما انفتح كان غريبا يتصدره مرت به إلى حجرة امها دون ان تراه .. هناك كانت تجلس على كرسيها العتيق عندها وعلى رجليها كطفلة اصغر من صغيرتيها كانت تجلس .. إبنتها منى تقهقه لرؤيتها ورجاء الصغرى تضحك لأختها بينما تردد مها « سقط الحمل عني يأمي .. انتهى مشروعي العملي يأمي » .. ولكن توحيدة هانم لم تتحرك لتتناول عصاتها مؤنبة أو مشجعة بقيت على جلستها ساكنة .. والغريب الذي فتح الباب لها لم تتنبه إلى وجوده إلا وهو يقول :

— ارجو ان لا ترهقيها لقد اصبحت الآن في حالة طبيعية و ..

لم تدر مها متى بكت لان دموعها هذه المرة جامدة تغيب داخل نفسها كانها تغيب في اعماق بئر لا قرار لها إنما السواد ورجع صدى اناتهاهما الشيء الوحيد الذي تعيشه . شوك برى يدك في حلقها وعصارة مرة تسح في فمها وهي تعرف من الطبيب ان والدتها تعبت إلى الدرجة التي استدعته فيها بنفسها حين شعرت بانها ستروح في

غيبوبة . هنا رفعت توحيدة هانم يدها محذرة باصبعها تعلمها بانها الآن فى احسن حال إلا ان يدها المعروقة ومعصمها الذى تضع حوله جوز غوايش فضة من ضعف حركتها لم تسمع مها لهما الرنين الذى تعرفه فظلت على وقفتها وجلة تحاول رغم كل انفعالاتها تحاول متانية استيعاب ما حدث لامها اثناء غيبتها وبسرعة خاطفة احست توحيدة هانم بحيرتها فاعادت رفع يدها محذرة فسمعت مها رنة جوز الغوايش الفضة فكانت بمثابة شحنة اطمئنان صغيرة استشفها قلبها وهى تبتلع المرارات داخل نفسها واستمر الطبيب يملى عليها الممنوعات من الطعام والشراب والأفراح والأحزان ..

ومها مازالت على وقفتها وقد سقط ذراعاها إلى جوارها نبت الشوك يتضخم داخلها تحاسب نفسها إحساسا بانها اتعبتها يضغط على ضلوعها فتخرج انفاسها فى اعياء ومرارة تفكر بانها فعلا اتعبتها فكل العبء تتحمله وحدها لم تنتبه إلى انها تكبر وانها تحتاج إلى نوع من الراحة وإلى .. وإلى .. وفجاة تناولت عصاتها وهى تزمجر بصوت مكتوم « ما شانك انت .. هذا شىء طبيعى ان يحدث لى بحكم السن » دوما تعرف كل ما يفتعل داخلها ومها على وقفتها الكسيرة ونبتة الشوك الدامى تعلو تتوغل داخلها فخرج صوتها مضجرا بالألم النادم :

— اى سن يا امى .. انه العبء الذى تعيشين فيه و ..

قاطعتها :

— وهل تظنينني اخلد ؟ من الطبيعى ان يشيخ الإنسان برفض قاطع كانت تقول :

— يشيخ ام انك مجهدة اكلفك اكثر مما فى طاقتك ؟

— بل يشيخ المرء ليموت .

— لا لا يا امى يموت الإنسان قبل ان يشيخ انت لم تكبرى ..

وهنا تدخل الطبيب مقاطعا :

— لا تضيعى الوقت عليك بإحضار الدواء .

وضعت مها سماعة الهاتف بعد أن عرفت أن زوجها فى إحدى مؤتمراته .. وعادت عيناها لا تشبع من النظر إلى امها وهى نائمة .. فى وجهها عطاء الدنيا .. تصحو فى موعدها تبتلع الدواء بعد أن تتحسس فى كل مرة نظارتها لتقرأ استعماله ثم تحدد لنفسها الجرعة وهى تؤكد :

— الإنسان حكيم نفسه .. الحكمة داخله .

فى مرة قالت لها :

— الحكمة وليس علم الطب .

ففاجاتها :

— وما الطب إلا صورة من صور الحكمة يا بلهاء .

لم تتمالك مها نفسها منذ اسبوعين من الضحك بركان الضحك تفجر داخلها :

— أنت ستعيشين يا امى .. لقد عدت لكلمتك القديمة يا امى يا حبيبتى ..

فاض البئر بلا قرار فاض ودموع مها تبلل وجهها فشدتها امها إلى صدرها فاراحت راسها عليه .. أمها تتحسس ضفيرتها وسمعت سؤالها باذن واحدة والأخرى مشغولة بسماع دقات قلب امها مكان موضع راسها :

— من قال لك انى ساموت يا بلهاء ؟

— ظننت ذلك .

— لا .. لا .. إن الله يعلم بانك لا تتحملين هذا الآن .. انه الرحيم ..

انتبهت مها على صوت طفلتيها بفرحة « الكلب .. ركس ركس يا ماما » ولكن هناك من نزع مساحة من شعره فانسلخ معه جلده فكان منظره لا يصدق تضغط على شدقيها جزعا ويتكور لسانها داخل فمها فلا تنطق والكلب يئن بصوت كانه الآه الإنسانية ..

اقتربت منه ، ما الذى جرى لك انتظر .. انتظر ، جرت تتناول زجاجة المطهر وقبل ان تفتحها كانت الصغرى رجاء تغرس اصابعها فى عمق جرحه ! فقفز من فوق راسها إلى جنب الحجرة الآخر وظل يعوى .. اندفعت مها تضربها وفى لحظة كان الكلب يهاجمها برجليه الاماميتين فاصبحت تصرخ فى الاثنين الطفلة والكلب بعدها اعتدل على رجليه الأربع واخذ يقرب من يدها موضع جرحه الدامى فغمست قطعة القطن فى الزجاجة وحاولت ان تمس مكان جلده المنزوع ولكنه ازداد عواء فابعدت يدها وهى تعتصر القطنة بمحلولها الأحمر دون ان تلمس جلده لحظة صمت وكف الكلب بعدها عن انينه تماما ثم تركهم خارجا وشريط دوار يجرى فى مخيلة مها منذ ان تعبت امها وهو يرفض ان يفارقها متمددا تحت سريرها راسه يظهر من جهة وذيله ظاهر من الجهة الأخرى للسرير يرقب كل داخل إلى حجرتها ويشعر بمقدم الطبيب قبل ان يصل يظل يصدر اصواتا يروح ويجىء امام باب الحجرة كانه ينتظره وطوال تواجد الطبيب بجوارها كان يصدر زوما متصلا وحاولت مها اكثر من مرة ان تخرجه إلا انها كانت تتراجع فى اغلب الأحيان امام علو نبرته كانت تخيفها وفى احيان كثيرة كانت تخيف الطبيب عليها .

★ ★ ★

الساعات تمر إثر بعضها ومها جالسة على حافة فراش امها عيناها لا تكتفيان من النظر إليها .. تطمئن عليها من بعض اماكن فى جسدها عند اول رقبتها يتضح لها نبض منتظم الدقات .. ويداها مفروطتان بجوارها فى استسلام .. عروقها الخضراء كانها سيقان زهر النرجس اقل بروزا من طول الرقاد وقلة الحركة .. انفاسها بلا صوت صاعدة هابطة كانت تتلمس بعينها هذه المواضع من امها فتطمئن عليها وتسمح لنفسها ان تسرق من الزمن لحظات لا تملكها لحظات تخلو فيها إلى نفسها .. تتذكر غيبة خالد .. دائما لا تجده عندما تحتاجه ! ولكنها دوما كانت قانعة وتجد الف سبب لتقنع

نفسها به عن طيب خاطر . ثم تعود بسرعة لتتحسس بعيونها وجه امها الذى غاب عنها برهة طولها ساعات تطمئن عليها من تلك المواضع التى تحددها وتسمح لعقلها مرة اخرى أن يشرد .. تتذكر الامتحان ونتيجته فتعى ان اعظم آمالها تضاءلت امام الأمل فى شفائها فلا قيمة لشىء إلا لأمها تفتش داخل نفسها لتعى مرة اخرى إنها هى القيمة الحقيقية والوحيدة التى تحس بها . هى واقعها بكل ابعاده وهى مستقبلها الذى تسعى له وتنتظره معها .. مدت يدها تربت بها على يدها المستكينة بجوارها فربتت أمها على يدها واحتوتها فى كفها وهى تردد بين اليقظة والنوم « النتيجة .. إتصلى بالدكتور عودة يا مها .. »

وهى على جلستها بجوار فراشها وبلا سبب مباشر تذكرت مها ركس الذى ذهب ولم يعد منذ ايام .. لم يعد منذ أنينه الأخير ولكنه وفر عليها التفكير فيه .. واحتمال سؤال امها عنه .. حين أزاح الباب فقامت بسرعة متصورة انها إحداهما منى أو رجاء تنوى أن تقع كعادتها من فوق الدرجات القليلة التى تفصل بين حجرتها وحجرة امها وكانت دهشة مها كبيرة ! إنه ركس وهمت أن تمد يدها تربت على راسه .. ترى جرحه إلا انه دلف مبتعدا عنها ليصعد الدرجات القليلة ثم قفز من شراعة الشباك المكسور المؤدى إلى سطح البيت ..

★ ★ ★

توحيدة هانم تقف بكامل هيئتها .. الثوب .. وعليه الشال .. الذى لا تخلعه فى اى فصل من فصول السنة فهو فى الشتاء من صوف وبر الجمل وفى الصيف من خيوط القطن المخلوط بالحرير .. والحذاء بالجورب فى قدميها حتى الدقائق الأخيرة قبل النوم .. شفيت توحيدة هانم تماما عصاتها امامها تدق بها كل شىء .. تدير كل شىء إلا أن الكلب كان يقلقها .. يعذبها عدم وجوده .. تعبت من المناداة عليه .. دقت بعصاتها الأرض فكان يتجنب النظر إليها من فوق جلسته على حافة سطح البيت .. :

— إنه لا ياكل ولا يشرب وانا احاسب على ذلك .
— عملت كل ما يمكن يامى .
— طالما انا مسئولة عنه فلا حدود محدودة لجهودى لانه ابكم .
— والعمــل .؟
— الطبيب .

توحيدة هانم تتسلق السلم الذى احضرته لها ابنتها من الحديقة لتصل إلى السطوح وعند اعلاه كانت مها تقف تلتقط يدها تجذبها منها .. وشعرت بها خفيفة اكثر مما كانت تعطى هيئتها ! وصراخ الابنتين مسموع لا يتوقف فلا قدرة لهما على تسلق السلم ولا ترضيان بعدم رؤية ركس .. اسرعت تناول امها عصاتها فاستندت عليها وهى تقترب منه وقد هالها ان تتبينه شديد النحول متصلب الرقبة يحاول ان يزوم فكان صوته يخرج ضعيفا محشرجا ثم مال على جنبه فبدا جرحه واسعا عميقا يقطر منه سائل لزج يلعقه بلسانه ..

وفجاة ترك المكان ونزل قافزا السطوح إلى مصطبة تشكل بروزا فى جدار واجهة البيت ومنها إلى حديقة المنزل الصغيرة .. فرفعت توحيدة هانم يدها إلى السماء شكرا فما دام نزل إلى الحديقة فستتمكن من العناية به وسيعود كما كان .

ولكنه خزلها باقى النهار بلا طعام وبدى كانه يخاف الماء !! جسده يفرز المادة اللزجة من اماكن كثيرة ! .. حتى عيناه فيغمضهما وكلما اقتربت منه يشد جفنيه شدا من اثر التصاقهما .. ومع محاولات الطبيب الأخيرة فى الاقتراب منه اخذ يعوى عواء متصلا فحاول تكميمه ولكنه ابتلع يده بين فكيه اكثر من مرة ثم انفلت منه متخذا مكانه اعلى سلم الدخول الخارجى كانت البقع البيضاء تتزايد يوما بعد يوم حول فمه الأسود وتوحيدة هانم جادة فى البحث عن طبيب آخر .. ولما وصل وقبل ان يقترب منه كان يسمعها هذه الحقيقة :

— هذا وقت متاخر جدا على العلاج .. ان رائحة الجيفة تنبعث

من السلم وانكما لم تلحظا ذلك لانه يعيش بينكم .. كما ان هناك خطر العدوى .

— وما السبب ؟؟

— خروجه بحثا عن الأنثى وقد تعرض لهجوم شديد من ذكور آخرين نزعوا عنه جلده ..

— ذكور تغار ! ؟

— نعم بالتاكيد .

وبلا إرادة شردت مها للحظات تفكر فى خالد ثم عادت بسرعة تعي وجود الطبيب وامها فى عينيها شيء جديد .. لا هو الجزع على ما اصاب ركس ولا هى رغبتها اللانهائية فى علاجه .. فى عينيها شيء واضح ولكنه جامد .. وهو كذلك لا رجعة فيه فهمت مها .. لابد ان يموت ولابد ان تبلغ لياتوا .. عينها هلوعة وهى تصوبها لوالدتها التى اصبحت اسرع من البرق تتعايش مع واقع انقض عليهما من ثانية .. الحكم بالموت عليه .. عبوة ضاغطة تثقل على صدر مها وهى تمد يدها لتدير القرص فتستدير بوجهها ناحية والدتها لتفاجأ بعينيها وقد حوت بواقعية شديدة وبلا تردد الحكم عليه .. وكان الموعد بعد ساعة ..

★ ★ ★

مع وقع قدم اول شرطى امام باب البيت والذى يحمل يافطة مكتوبا عليها « احترس من الكلب » إذ به يقف نافضا جسده ملفتا رقبته التى بدت غليظة ممتلئة فاجتاح مها إحساس بالندم من نداداتها للشرطة وهمت ان تخطو خطوة لتمنعهم وتوقفهم فكانت الأقدام لعدد من العسكر تتوالى فى دخولها على السلم وهمت مرة اخرى ان تمنعهم ستدفع اى مخالفة يطلبونها مقابل إزعاج السلطات .. وصرخت : « لا تقتلوه .. لا تقتلوه »

رفع عينيه ناحيتها شاخصا إليها بنظرة عادت بها إلى اليوم الذى هاجمها فيه فجرا وهى عائدة مع خالد ثم وقع لم تحتمله رجلاه

الخلفيتان فسقط مرتطما بالارض وتبول مدرارا بعدها عاد ليتماسك فشد من رجليه وجذب مؤخرته وللحظة وقف مهيبا كما كان وابتعد بسرعة عن مكان فضلاته كانه يتعمد ان يقف لحظاته الأخيرة طاهرا ..

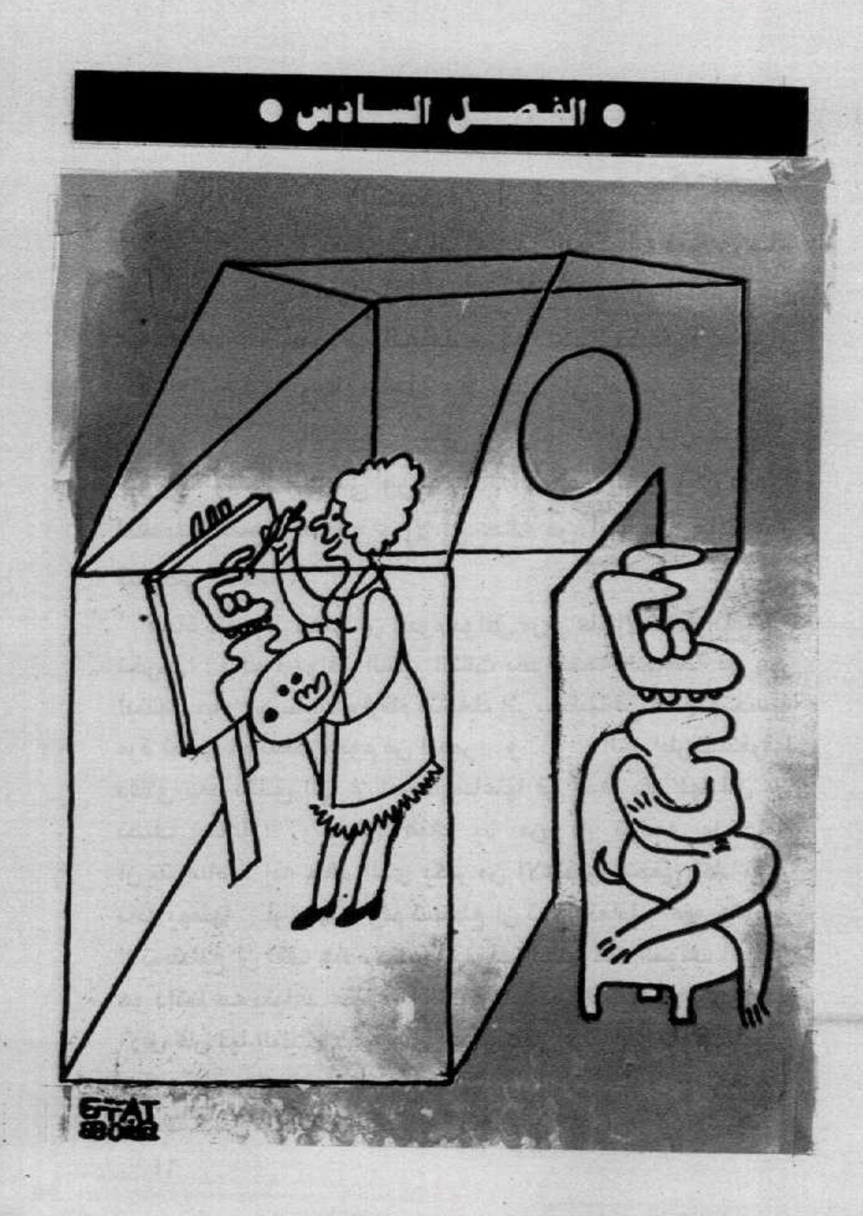
وفجاة ومها تتابعه دوى الطلق الأول فنزل به درجتين ثم دوى الطلق الثانى واكمل نزوله اشار احدهم أن يكف عن الطلقات فاكمل باقى السلالم القليلة ثم سقط فاقدا كل شىء وبدا لعين مها فى هذه اللحظة كان جسده تخلص من مرضه ! بدا لها ممتلئا ! اختفت عظامه ! وعاد شعره لامعا كثيفا يلف جسده .

كان الجيران يطلون من اماكنهم والعسكر يصطفون على جانبى الممشى وخرج ركس محمولا إلى ان اسقطوه فى العربة العالية والتى زمجرت كانها تمعن فى الإعلان عن بدء رحيلها .. لم تحاول مها ان تلقى نظرة وهو يبتعد داخل العربة .. عيناها فقط حوت مشهد الجيران الصامت فاسرعت إلى صدر امها التى شدتها إليها بقوة وهى تردد بثقة :

« كان لابد ان يحدث ذلك » .. « كان لابد ان يحدث ذلك » ..

★ ★ ★

• الفصل السادس •



لايجب ان اتاخر عن دعوة العميد
« تنظر مها إلى وجهى ابنتيها » منى ورجاء
كانها تفهمها « لا يجب ان اتاخر عن
موعد العميد » ثم على ركبتيها بجوار
رجاء تقول « لا يجب ان أتاخر عن موعد
العميد » حتى صارت الصغيرتان ترددان
حولهما نفس المعنى ورغم هذا التأكيد الذى تكرره مها
لنفسها بصوت مسموع إلا ان حالة من التشتت والتوزع
تسيطر عليها .

فجاة يقفز إلى ذهنها ان اليوم يوافق مرور عام إلا ثلاثة أيام على تخرجها ! واليوم يوافق الشهر الثالث بعد السنة الخامسة من عمر ابنتها رجاء ! حسابات وارقام تتشابك إثر بعضها فى عقلها فتحسب مرة اخرى كم بلغت اليوم من العمر .. و .. و .. الخواطر تستغرقها دقائق بعد دقائق إلى ان لمحت ساعتها فى يدها بقى لها أقل من نصف ساعة !! ولم يكن هناك بد من ان تواجه ما تحاول ان تتناساه .. إنه خالد الذى يكثر من الاعتذار .. حتى تكاد تقول بانه يهملها .. أو ملها .. ولم تستطع أن تحدد تماما .. فهو كالزئبق لا تستطيع ان تقف عنده متلبسا بموقف معين هذا الموقف المعين هو دائما فيه يتباعد عنها وهو لم يكن فى يوم لصيقا بها ولكن على الاقل كان لها الثلث الأخير قبل الفجر كانه إختار هذا الوقت ليبقى عبقه يؤنسها النهار كله .. ولكنها الآن تعيش الإحساس بالاحتمالات .. فالثلث الأخير الاحتمال الأكبر ان احد المرضى

سيشغله او سيحاسب فيه إحدى ممرضاته او سيكتب فيه آخر ابحاثه .. او .. او .. او .. ينأى بنفسه عنها بمهارة .. مهارة الجراح رشيق المشرط ! لا ينتبه وهى تشرح له اى لوحة بل يطيل التحديق فى عينيها فقط وإذا اصرت ان تسمع رأيه كان يرد عليها بإصرار :

— سبق ان حذرتك من الاتجاهات .

ولم تكن مها على وعى او فهم بأبعاد الكلمة او لماذا يطلقون على ما تخطه اتجاها .. إنها لا تدرى متى احبت ان تجسد بالفرشاة معنى الخلق او إحساسها بالقدر او معنى الحب الأكبر ..

وفى بيت الدكتور عودة كانت تتساءل :

— كيف يتخذ الإنسان اتجاها معينا ؟

— بالاقتنـــاع .

— وكيف اقتنع بشىء لم اعرفه ؟

— ولكنك عرفته لأى سبب من الأسباب فتمسكت به وصار اتجاها لك .

بعد لحظة تفكير كانت تتساءل بصدق :

— هل كلمة اتجاه عيب ؟

— يتوقف على نوع الاتجاه .

— كأنها ليست تهمه ؟؟

إبتعد الدكتور عودة مقدار خطوتين يلتقط شيئا من على المائدة وقدمه لها وهو يقول وقد بدا عليه التفكير :

— مها .. ماذا وراءك .. قلت لك ان تحكى لى كل شىء واولا .

— اولا ماذا يادكتور ؟

— اولا .. دعينى اسألك لماذا لم يأت معك زوجك ؟

قطع عليها التردد والتخبط الذى تعايشه .. وضع يده على دائها الذى يعشـش داخلها .. حتى ضاق به قلبها .. ويعشـش ايضا خلف عينها فلم تقو ان تمسك بزمام الاثنين فتسابقا وفاضا وهى تهمس بينهما :

— لا لا لم يهتم ان ياتى معى ولا ان ولا .. واخيرا ماذا يعنى بكلمة اتجاه ؟ وأى عيب فيها ؟ اى عيب فيها ؟ و .. فقاطعها الدكتور عودة :

— ما العيب إلا العيب .. بالطبع ليس ..

وظل الدكتور عودة يكلمها كثيرا يواسيها ويحاول ان يخفف عنها متظاهرا امامها بإحساسه الكامل ببساطة ما يجرى فقال لها : أحب الإنسان الذى يبكى فهذا دليل روح الفنان البكر وهى تمسح دموعها كانت تساله بصدق :

— ما معنى الفنان البكر ؟

— هو الفنان فى بدايته الذى لم يصل إلى مستوى الحرفية .. ذلك الذى لا فرق عنده بين الحقيقة وما يبدع او يحاول ..

ظل الدكتور عودة يكلمها عن اهمية عملية البكاء فى حياة الفنان كتفريغ من ناحية ثم شحن على ارضية مغسولة من ناحية اخرى .. وهو مندمج تماما إذ به يصل بنفسه إلى ان يؤكد لها بانه لم يبك منذ عشرين عاما ولهذا لا يعتبر نفسه فنانا إنما هو رجل له منصب إدارى ويحاول ان يتذوق .. كان الدكتور عودة يحاول باكثر من طريقة ان يطيب خاطرها ولو على حساب نفسه ومها تقف امامه تسمعه بكل كيانها تفهم ما وراء كلماته فادركت على الفور جسامة ما سببته له ولكن فجاة كان بينهما شادى يقول مازحا « مها دائما تستاثرين بالدكتور العميد ! ؟ » إحساسها بما سببته للدكتور عودة دفعها ان تبتسم بصوت مسموع وهى تستدير لتنتقل إلى باقى الحاضرين واغلبهم ممن يعملون فى الكلية سواء بالتدريس او بالمسائل الإدارية ومها وشادى انضما للعمل معهم من حوالى علم بعد التخرج وكان بينهم زملاء وزميلات ايضا فاجاتها إحداهن بصوت مرتفع لتسمع به الجميع « عيون المها هذه المرة حمراء وليست فى حالة هيام » كانت سميرة زميلتها تتعمد كدابها إثارة مها .. وفضح ما يعتمل داخلها سواء بالسخرية او الضحك

او الاثنين معا وكان شادى فى نجدتها كعادته وهو يقول لها « لا عليك هذه طبيعة سميرة » ورغم كلمات شادى .. إلا ان مها كانت بحواسها مع سميرة وان تظاهرت فى نفس الوقت بعدم الأكتراث بها حتى اقنعتها على البعد بانشغالها الكامل عما تقول وبدأت تتناول فنجان الشاى بهدوء مع قطع الحلوى عشرات من الدقائق انطوت بعد ذلك وكانت سميرة اول المنصرفات ويدها ممسكة بكفها .. كانت تقول « يا ستى ما كان السرحان أيام الكلية احسن من البكاء » وانخرطت تضحك .. لضحكاتها ترديد الصراخ فى اذن مها وهى مشدوهة تحدق فى فمها المفتوح وهى تضحك صارخة او تصرخ ضاحكة ثم ماتت ضحكتها فجأة ويدها مست ظهر مها وهى تقول بسرعة وفى صوت خفيض « لك ان تسألى باقى الزملاء عن رأيهم فى سبب بكائك .. ها .. ها .. ها .. »

تلفتت مها حواليها وهى تشعر بنوع من الارتياح وخطوات سميرة مبتعدة إلى باب الخروج وبدأ الجميع متجاهلين كل ما بدر من سميرة كل واحد فيهم يشعر بمسئوليته لتمضى الليلة على اكمل وجه فلم يعلق أحد والدكتور عودة منخرط مع ضيفيه فى حديث يبدو انه سياسى فتحديد الملكيات بمائة فدان .. وهجرة الأيدى بعد قيام الثورة بعامين .. و .. و ..

الوقت يمضى .. والناس تمضى معه .. وتبقى الكلمات يقلبونها فى عقولهم من جديد يمطون الشفاه ويقررون ان سميرة بقسوة كلماتها افسدت الليلة .. يصرون بطريقة مباشرة أو خفية ان يوصلوا إلى مسامع مها مالم تسمعه من زميلتها « كانت تقول كذا .. هل كان قصدها أن ؟ وهل كانت تعنى بذلك .. و .. و .. » ورغم ضراوة محاولتهم وإصرارهم عليها إلا ان مها كانت تنتزع نفسها من بينهم انتزاعا وان بقيت واقفة وسطهم تمسك بكلتا يديها طبق الحلوى وقد بعدت تماما عنهم وقفز إلى ذهنها مقتحما بصورته كل عقلها شاب يعمل مخرجا وقد عرف بانتاجه للأعمال الجادة والهادفة

وبانشغاله ايضا بفكرة القومية العربية .. يوم راته فى الكلية مصادفة قدم لها نفسه بتواضع شديد وهو يقول :

— اخيرا رايتك وكنت اريد معرفتك و ..

قالت وما زالت يدها فى يده :

— من منا الذى يتمنى ان يرى الآخر ؟ !!

ثم سألتها بسـرعة :

— هل رايت لى أعمالا ؟ يهمنى ان أسمع رايك .. اقصد نقدك ..

اندفعت مها مبهورة تحكى له ما اعجبها فى اكثر من عمل له .. تنوى ان تقص عليه فصلا من كل مسرحية اخرجها ..

الكلمات تتسابق إثر بعضها فتنساب منها وفجاة وبعد اقل من دقيقتين كان يقول بحدة :

— اين نقدك ما الذى لم يعجبك ؟

— كل شىء اعجبنى .

— وهذا خطؤك وقصور فى رؤيتك .

— لمـاذا ؟

— لانك فى حالة مصالحة مع كل شىء وهذا ليس فنا وهذا ما يظهر لوحاتك و ..

يظهرها بمـاذا ؟؟ !!!

— لقد تعمدت ان اراك بنفسى لهذا السبب ان ما يعيبك هذه المصالحة التى بينك وبين الأشياء والفن يامدام قائم على فكرة الصراع ..

— اصارع من ؟

— نفسك .. قدرك .. واقعك .. مجتمعك ..

علت الحمرة وجهها تنوى ان تبكى ولكنه اسرع يؤكد لها :

— لا .. لا تبكى يامها والا نفدت الشحنة التى داخلك فتخرج لوحاتك امنة باردة .. فى عملك سكينة وقناعة لا افهمها .. هل فى داخلك مثل هذه السكينة ؟ ؟


EFFAT
88 عفت

ومها على وقفتها فى بيت الدكتور عودة وكل هذه السهام التى يلذ لهم أن يرشقوها بها فتخرج بدمها أو تبقى فى عروقها إلى نخاعها وهى على وقفتها تلوك قطعة حلوى دون أن تحس بمذاقها قفز إلى ذهنها كلمات ووجهه هذا المخرج لتقرر بيقين يصل إلى حد الايمان ان الحياة فعلا صراع ومنذ اليوم الأول الذى نتدحرج فيه إلى دنيانا برؤوسنا او بارجلنا بعد ان يتوهج احساسنا بتلك الحدود المحدودة والتى لا نقدر معها حتى على التلفت فنندفع فى لحظة خارجين والأمل يقين داخلنا باننا سنضحك والدنيا تردد بعدنا صدى سعادتنا واننا سنصرخ حتى نسمع صدى أصواتنا باذاننا فالدنيا رحبة بلا حدود قد خلقت من أجلنا ، ولكن عند اول شهقة لنا فى الدنيا نصاب بالعويل المتتابع شىء ما يشنق داخلنا ونعرف انه فى نفس لحظة تذوقنا لرحابة الكون وانفتاحه نعرف بضراوة اننا مستلبون لكل معنى للحرية يسلب بعضنا البعض حريته المنشودة وينتهى بنا الأمر إلى ان يسلب المرء نفسه حريته وبنفسه لنصبح بإرادات الآخرين تارة وبإرادتنا تارة اخرى فى مازق من داخلنا الاحساس بالمازق هو الحقيقة المعاشة والوحيدة . والتى لا نملك معها إلا القول بندم ضارب فى القدم وسحيق له عمر مولد الخليقة نقول عن طيب خاطر بان ايام جلسة القرفصاء فى ظلام بطونهن والتى كنا لا نقوى فيها حتى على التلفت كانت تمنحنا قدرا أكبر من الاحساس بالحرية !!

وصحت مها من شرودها الطويل وهى تؤكد لنفسها ان الحياة حقا صراع واغرورقت عيناها بالدموع كانه عز عليها ان تقر بهذه الحقيقة .. وقرب استاذها الداعى كانت تحاول ان تجد لنفسها مدخلا للحديث معه حين التفت إليها احدهم كان صحفيا يتابع الحركة الفنية فقال :

— اقدر محاولاتك يامها ولكنى انصحك ..

— بمـــاذا ؟

— بأن تبتعدى عن غياهب الدين .. ابتعدى لتشتهرى وتتحررى و .. و ..

الحلقة تضيق من حولها كلما وضعت وجهها فى وجه أحدهم حذروها جميعا بمسميات مختلفة مثل الاتجاهات وغياهب الدين او سكينة لا يفهمونها . مسمياتهم تنذر بشىء واحد والغريب ان مها المقصودة بكل هذه الجلبة لم تفهم مما يقولون شيئا فكانت ترد عليهم دوما ان إحساسى بهذه الرسومات ما هو إلا احساسى بالله وما أظن أن الله قد بعد عن داخل أى منا !!

★ ★ ★

• الفصــل الســابع •



ليس هناك من شك فى أن مها تعيش أعتاب محنة ولقد عايشت آلاما كثيرة ولكنها كانت بلا صراع لانها كانت أيضا مشيئة قدرية . .آلامها غاية الألم ولكن لم يكن دورها فيها يتعدى إلا أن تتغلب على نفسها .. ان تلوى عنق نفسها لترضى أو تنسى .. أما الآن فهى تعيش أطوارا وصراعات من نوع جديد ..

بل ويتطلب منها أن يكون لها موقف تتخذه وتدافع عنه .. تتلفت حواليها فتحس بانها وحيدة لا احد بجوارها وترفض ان تحكى لوالدتها مافى صدرها مثلما كانت تفعل قبل مرضها الأخير .. لقد اصبحت تخاف عليها .. ترى ان اى حدث يثقل على قلبها بل وتردد لنفسها باستمرار :

« هل خرجت إلى الحياة العملية لأعود إليها كل يوم بمشكلة جديدة .. كفى لقد حملتها اكثر مما تستطيع » .. تفكر فى خالد زوجها فكم تحتاج إليه الآن وقبل ان تتلمس روحها الإحساس بالملجأ والأمان عنده كانت تفيق على شريط باحداثه يدور امام عينيها يؤكد ان خالد يتباعد عنها .. تفهم انه يلبى دعوات لأصدقائه لا تكون فيها بجواره أو يدعوهم ولا يحتاج ان يتكىء عليها فى بعض مسئوليات زواره انه يبدو دائما فى غنى كامل عنها وحتى عن كلماتها الرقيقة التى تعمق له الإحساس بحبها واحتياجها إليه .

وكان طريقها إليه مع الفجر تنوى أن تضع حدا للشقة المصطنعة بينهما .. أول مرة منذ فترة تشعر دقة الفرح داخل قلبها واخضر الطريق يؤكد لها انه لون الأبد .. ترى أشجار الجازورينا تبالغ فى احتفائها بها الوردى عن يمين الطريق والبنفسج عن شمالها احتوت مها بمقلتيها اللونين وفى قلبها زهرة بيضاء مزروعة برفق .. صدفة لمحت سحابة لم تخلع عنها ضوء القمر بعد .. السحابة ترسم وجها تعرفه وينتظرها .. دائما تعشق مها لحظات بعينها يتلاشى فيها الفرق بين الحلم والحقيقة وهى فى رحلة انتظارها الطويل له حتى قبل أن تعرفه حين كان يكثر تساؤلها لنفسها « ماذا انتظر هل هو الابن ؟ أم المال ؟ أم النجاح ؟ أم الحبيب ؟ » إلى أن رأته وبعدها كانت تعلنها واضحة دعونى مرة اختار ؟ دعونى مرة اختار ؟ »

وعند دائرة حميمة توقفت . دائرة تعرفها تتوسط ملتقى أكثر من طريق والضوء يتخلل فراغات الشجر تلمح منه السماء ، تتعمد أن تقف تحت الفراغات تحاول بعزم أن تمسك الشعاعات اللامعقولة وما زالت دنيا الحى ساهمة والفجر زائرا قليل الصبر يسلمها بسرعة للصباح .. فتشتهى من أعماقها أن يتأخر فكم تخاف وهى على وقفتها الرحيل وتصر فى نفس الوقت أن تشهد ثوانيه كلها . تجمع داخل نفسها أوج الفرحة بالشروق وحضيض الحزن لرحيل الفجر . وكانت الشمس فى تجدتها سطعت مؤكدة وبشكل نهائى انقضاء آخر مشهد من مشاهد الرحيل الأبيض رحيل الفجر بعدها احتوتها شمس الطريق لتطهرها من بقايا أحزان تضع بقسوة الحدود بينها وبين خالد .

★ ★ ★

تخفى مها كل ما يمكن ان يثير زوجها .. قصاصة من جريدة إقليمية تشجع اتجاهها فى رسم ما تحسه .. مشاريع لوحاتها تداريها خلف الأبواب .. تنكر نفسها من زملائها وهى بجانبه .

حاجز ضخم يفصل بين مايعتمل فى عقلها كالدوامة التى لا تهدأ وبين واقع تعشقه ويحكم عليها أن تسكت ما بهذا العقل .. ان تقضى على ما بنفسها وهو بجانبها .

وكان الدكتور خالد يكثر من التواجد بجانبها لإحساسه انه لم يعد يشغلها شيء عنه يجيد الاحتفاء بها .. يعود بها برفق شديد الى أيامها الأولى .. يطلق العنان لنفسه ويفك أسارها وعلى سجيته يكلمها عن واقع يومى يحياه ويومه محسوب هناك من يحسبونه له .. يجهزونه له حتى يلبسوه رداءه المعقم .. يناولونه المطهرات ليغسل يديه .. يدلكون له فقرات رقبته بعد ان ينتهى من اجراء جراحاته التى لاتنتهى .. ثم يحكى لها بإيمان مروع عن قدرة الجسد الانسانى على تخطى المستحيل فى رحلته للتمسك بالحياة .. قدرة تبتلع الدماء والجراح قدرة تتجدد بسرعة لايمكن حسابها بادق الآلات ..

وتوقن مها وهى مصغية اليه أن المرء يتلمس إيمانه بل ويتجدد احساسه بهذا الايمان من خلال مايصنع ويقدم كل يوم . هى الأخرى تعرفت على لذة هذا الشعور من خلال الفكرة التى تنوى ان تجسدها بفرشاتها فى كل يوم .

ومازال خالد بحرارة اندفاعه يحكى لها ليكبر السؤال داخل عقلها دون أن تجرؤ على البوح به « هل كان يمكنه العيش دون ان يتجدد اليقين داخله ؟ دون أن يرى الله فيما حوله ودون أن يحار ايضا فى حكمته .. رباه لماذا ينكر على إذن هذا الاحساس بعينه ؟؟! » ..

ورغم هذا كانت مها تكن له شعورا صادقا بانه احق بكل نفسها بكل طاقاتها .. وخالد لايفارقها اصبح يفضل ان يقضى بجوارها ساعات اطول وهى فى غمرة فرحتها بعودته .. تبرع فى واد الرغبة

امامه فيما تحلم به حتى اعتادت هذا الفصل بين ماتتمناه وبين واقع تحياه بكل الحب واليقظة عندما ينتصف الليل تغسل يديها من اثر الالوان والمعاجين .. تخفى اللوحات خلف الأبواب .. تحل ضفيرتها لان خالد على وشك الوصول . وقت يعيشه البيت فى ترقب ملهوف وهو يبكر يوما بعد يوم فى حضوره .. وتوحيدة هانم سعيدة بوجوده الأطول .. تتحامل باصرار وتقف بكبرياء تعد له اطباقها الشهيرة رافضة اى مساعدة من ابنتها تشيح لها بيدها ان تذهب تسوى من شعرها او تتعطر وهى تردد لنفسها او لمها بان وجود الرجل المنتظم فى البيت يدفع الجميع للتنظيم ويوجد مذاقا للحياة اليومية الى ان اكتشفت توحيدة هانم ذلك الأزدواج الذى تصنعه ابنتها بحياتها فكانت تكيل لها من خشن الكلام الكم الذى لايمكن تجاهله :

— هذا كذب .. تخافين فقط ولكن لاتخجلى من نفسك ومن كذبك يافلاحة لابد ان تصارحيه مادام هذا عملك واملك لابد ان يكون عندك شجاعة وإرادة .

— اخاف ان افقده .

— للاسف تكذبين عليه بدلا من ان تصارحيه .. لان الكذب اسهل واسرع .. اين حججك لتقنعيه و ..

— اخاف ان افقده ثانية

— انت تفقدينه فعلا بهذا الكذب والغش الذى تعيشين فيه .

ومع الوقت كانت توحيدة هانم تنام قبل ان يحضر خالد وهى تكيل لابنتها من النظرات الكم الذى يقلقها .. ولكنها كانت تنام .. فتجرى مها تخفى لوحاتها وقصاصات الورق خلف الأبواب وتحت الوسائد من جديد .

● ● ●



● الفصـــل الأول ●

كان لابد من ان تترك كل شىء على حاله .. تحمل ابنتيها لتسكن بيته .. ولم تكونا « منى ورجاء » أكثر سعادة من اليوم الذى جمعهما بخالد بيت واحد تتسابقان فى ترتيب حجرته .. فى وضع كوب الماء على يمين مخدعه بعد أن تتناوبا دلق نصف الكوب على الأقل فى كل مرة .. عيونهما تمسح المكان بكل الحب منشغلتان بوضع سماعة الكشف تتسمعان نبض بعضهما وكان النبض يهتف باسم بابا خالد وهو يحضر لهما وريقات مكتوبا عليها اسماهما يسبقهما لقب دكتورة .. وهكذا كانتا توزعان التذاكر الصحية كانهما فى مدينة فاضلة فبعد التشاور الجاد تقرران أن العصفور يعانى التهابا فى القلب وضغطا فى الأحبال الصوتية !

ومها تراقبهما ولا تجيب إلا بالضحك من اعماقها .. تشاركها الضحكة زوجة شقيق خالد وهى اجنبية عربيتها مبتدئة وكثيرا ما كانت تلقنهما اسماء بعض الأدوية المكدسة فى كل مكان ..

هذا الأخ وأخر اصغر منه عمرا كانا املا كبيرا فى حياة خالد يرعاهما كفلذات كبده .. بل هما اكثر .. هما لا يعوضان لا يقدر علي استعادتهما مرة اخرى .. مشغول بهما باستمرار .. قبل ان يدخل من الباب ولو كان مكدودا يتمتم لنفسه بان الأكبر لابد انه يشكو من آلام ظهره فهو لا يكف عن ارتداء القميص دون قطعة ملابس داخلية تحته ومازلنا فى الشتاء !!! والأصغر بجواره لا يتوقف عن ان يلقى أمامه بآخر الاحصائيات الطبية عن اضرار التدخين واكذوبة السيجارة التى لا تضر ..

وتلمس مها انهما غاية فى حياة خالد وتتعرف كذلك على منفذ جديد الى قلبه . منفذ يثرى حياتها بينهم لأنها تعطى الآخرين فلقد أخذت الكثير من والدتها والآن جاء دورها لتعطى ، وكان فى العطاء لذة جديدة عليها لم تكتشف مها أنها تجيدها إلا بعشرتها معهم وكثيرا ما كانت تحس بان لذة العطاء تفوق الأخذ والمتعة تاتى بالمران والتعود لقد صارت تفهمهم وتحس بهم بوضوح لمعة البرق ينقضى اليوم لا تنتبه فيه إلا وهى تسقط نائمة وفرح الدنيا فى قلبها فالابتسامة محسوسة على كل الوجوه وكانت مها تسرف فى تعاطى هذه البسمة لتروح بعدها فى نوم اعمق .

ياتى خالد على اطراف اصابعه .. يخلع ملابسه .. يبحث عن نظارته دائمة الضياع فاذا استطاعت أن تشير له عن مكانها هنا او هناك وإن لم تستطع تعاود نومها على جنب آخر تفكر او ترجىء التفكير الى غد جديد تحتاج فيه أن تنجز اعمالا منزلية لا تنتهى .

عالمها .. عالم مارد هو البيت والأولاد فتقرر أن فى الغد وبلا تفكير ستمد اجازتها مدة اطول .. ألف .. ألف سبب يدعوها لهذا أحبال واحلام تشدها الى البيت . كل يوم تغير او تضيف مع زوجة

اخيه . تبدلان وضع الحجرات لهثا خلف أشعة الشمس .. ودوما تلح عليها أن ترسم شيئا للبيت يزيد جماله ، تتحفظ (كاتى) فى ادراجها على بعض الصور المطبوعة من بلدها وتطلب من مها ان تكررها بفرشاتها ، حتى صورة قديمة لوالدتها يوم زفافها .. وكانت السكينة تغشى نفسها وكاتى تشد على يدها شاكرة إلا فى ذلك اليوم فبعد ان صافحتها كعادتها وهى تنتهى من لوحة لها والتفتت تبحث عن ورقة وقلم تخط سطورا تدعو بها شقيقة تسكن بلاد الثلج تدعوها لزيارة القاهرة او لتجلس امام مها وهى تطبعها بفرشاتها كان طلبها هذا كان آخر احتمالها فجاة احتلها ضيق وغامت الدنيا فى عيونها انطبقت اللوحات بشخوصها على انفاسها .. شىء ما يهزها من داخلها فتتندى جبهتها قدماها لا يقويان على حملها . هل يمكن ان تدور الحجرة بهذه السرعة !! اصوات تسمعها فتستجمع شتات عقلها وتجاهد بقوة لتتذكر متى سمعت تلك الذبذبات التى تسبق خروج اصوات اليفة لديها !؟؟ وتعى من خلال شبورة افكارها بان هذه الدقات الواضحة الآن كانت تلازمها وهى تقترب من كليتها أيام الدراسة .. وفجاة افاقت مستعيدة نفسها كانت كاتى زوجة اخى خالد مازالت تكتب سطورها !! وتعرف مها ان ما مر بها لم يستغرق من عمر الزمن قدرا رغم ان الدنيا من حولها انقلبت فيه بدوران مخيف . الى كوب ماء كانت تلقى به فى جوفها وجلست متكومة على المقعد وهى تلهث . وكاتى تختم سطورها وتدندن باغنية لها محفوظة خرج صوتها اكثر من مرة ضجرا يحث مها ان ترد على الهاتف الذى لم تسمع دقه ! إلا ان يدها الممدودة بالبوق اكدت لمها ان هناك من يطلبها .. وكان الدكتور عودة « ولن نسمح لك باجازة اخرى .. وهناك معرض لابد ان تشتركى فيه و .. و .. و .. » ..

لسانها جاف داخل فمها .. بقايا دوار بطىء مازالت ترى به الأشياء من حولها تهتز ولكن المساحة بين اهتزازها تضيق الى ان

توقفت واصبح ما حولها ثابتا تماما .. كانت « كاتى » مازالت تنقش العنوان على مظروفها وصوت الدكتور عوده اعاد الى مها اتزانا غريبا كانها انفلتت مولودة لتوها وحتى لحظة مولدها هذه لم تكن فيها صارخة باكية بل كانت تولد من جديد بعمرها كاملا تصغى له بكل استيعاب .. تحبس انفاسها وتتحكم فى انفعالاتها وهى تلتقط كلماته .. شيء ما عاد اليها . كان روحها تلبست الجسد الذى طال تجواله فى عوالم غريبة وعديدة وسرى فى يدها خدر من الرغبة الحبيسة أصابعها اوحشتها فرشاتها بخطوط ما احبت كلها رغبة فى أن تنقل ما فى عقلها هى على قدر تفسيرها ورؤيتها لما تحس وتفهم .. لا .. لا تريد ان تنقل ما تمليه عليها « كاتى » .. او ما يمليه احتياج البيت وتهمس لنفسها : « سارسم معنى العدل .. ولكن ما هو العدل ما لونه وما كينونته ؟ هل العدل هو الحق والى اى حد يرتبط بالصدق ؟ ولماذا يوجد دائما من يرغمنا على غير الصدق ؟ باى الألوان سابدا ؟

وتركت الهاتف لاتدرى متى .. هل ادت التحية لأستاذها أم لا ؟ تراه فهمها .. احس انه اقتلع بكلماته القليلة سدا كان يؤجل تدفق فيضان روحها لاتدرى . لاتدرى حقا كل ما عرفته انه قال لها بموعد فى الغد .. برهة ومدت اليها كاتى يدها بمظروفها لتتم ما يمكن ان يكتب بالعربية عليه لتلقى به مسافرا . وادهش مها تماما انها لم تحاول أن تستفسر مطلقا عما جرى لها على ضخامة ماجرى لها فى هذه الدقائق بل ناولتها مظروفها بلا مبالاة متناهية .. ومها لاتجيد الكلام بلغتها فاستخدمت الاشارات محاولة ان تفهمها ما مر بها ولكن حلى « لكاتى » ان لا تفهمها او ان لا تبذل اى جهد لتشعر او تحس ما أرادت ان توصله لها .

الدق على الباب .. وجرس الهاتف وبكاء او ضحك منى او رجاء تداخلت كل الأصوات بما تعنى مقتحمة عقلها فقطعت ما تفكر فيه ولم تنشغل بما حدث لها طويلا استغرقتها واستعادتها دوامة الحياة المنزلية التى لا تنتهى ..

وعادت بتسامح شديد وعفوية تغرق فيها الى ما فوق طولها القصير فى بحر العطاء .. والعطاء المادى لم يكن مطلوبا منها ولكنه كان عطاء اشد ضراوة لانه من حساب روحها حين حرمت على نفسها حتى التجوال فى عوالم خاصة بها تعشقها وتستجلبها وقتما تشاء لتدور طليقة بين رباها لأن الواقع الذى تحياه بينهم يحتم عليها ويتطلب منها ان تكون دوما يقظة .. فى كامل اليقظة لتسمع وتتسمع اى رغبة منهم ولهم لتحوى داخل عقلها باوتاره المشدودة كل مايلقمونها إياه .

* * *

• الفصل الثانى •



ومها تعيش حياتها بين خالد وأخويه ، الأكبر مع زوجته ، والأصغر وهو طالب فى أول سنة له ايضا بكلية الفنون ، تبذل جهدا موصولا مع نفسها ودون أن يشعر بها أحد فى أن تنفى عن خالد أى اتهام ! ..

فى البدء لم تصدق كيف يبذل زوجها كل طاقاته والتعاسة تسيح فى ارجاء الدار ! .. تراهم يضيعون الساعة وراء الأخرى متصلبين بلا حراك يختارون لعيونهم اى ركن من سقف البيت ويبحلقون فيه بنظرة ساهمة لا نهائية عندها تضيع الساعة وراء الأخرى تتسمع فيها الزفرات كانها تتخبط داخلهم أولها حشرجة كأن أرواحهم تنوى أن تسابقها فى الخروج حتى انجليزيتهم الشقراء كأن قدراتها العقلية فسدت فانستها إرادتها وربما ملكاتها ونسيت قبلهما رغبتها فى أن تجيد لغتنا واكتفت مع مرور الأيام على هذه الحالة بأن تكلمها بالإشارات ..

الوقت بداية العصر وخالد يستعد للقيام بزيارات لبعض المنازل قبل موعد عيادته تتتابع خطواته بين حجرة المكتب وحجرة النوم ومها تتتابع خطواتها هى الأخرى وبجوارها أخوه عمرو طالب الفنون ـ دائما يمسكها من ذراعها يشدها كأنه يسرقها من انشغالها بأخيه ليدخلا ويلقيا نظرة على لوحاتها فى آخر حجرة منسية فى الممشى الطويل وهناك لم تهتم مها أن تشرح له قصة كل لوحة إلا أمام لوحة تخرجها فقد توالت الدقائق وهى توضح ما تعنيه

برسمها معانى لآيات على قدر ما فهمتها جسدتها بفرشاتها .. وعمرو كثير التساؤلات فكانت الجذوة من داخلها تعلو وتتوهج رغم انها برعت فى إخمادها وتناسى معانيها الف الف حساب لأشياء تحسبها تجعلها تقف على بعد من لوحاتها لتجتر فقط ذكرياتها لونا لونا وخبطة فرشاة بخبطة فرشاة . على وقفتها وعمرو لا يكف عن الأسئلة :

— لم تكملى لى لماذا اصلا اخترت رسم معان من القرآن بفرشاتك ؟

هل كانت فكرتك انت ؟ وقلت انك تعرضت لمضايقات ممن ؟ ولمـــاذا ؟

عشرات الأسئلة تمسك بتلابيب بعضها فقالت من فورها :

— إخترت ما اخترت لانى احبه لانه شديد الرحمة بى وفى كل يوم اعطانى جديدا اخفف به آلامى وامسح به أحزانى و ..

قاطعها عمرو لعدم قدرته على استيعاب ما تحاول ان توصله وبضيق قال :

— لم افهم يا طنط .. لم افهمك ؟

تملكتها حيرة شديدة فلم يكن بداخل عقلها رد واضح تجيب به عليه لم تفكر يوما فى احتمال ان يوجه لها عمرو هذا السؤال ، لماذا اخترت رسم معان من القرآن يا طنط ، واخيرا قالت وكانها عثرت على إجابة هبطت عليها فجاة :

— اخترت ما اخترت فى الواقع بسبب دراستى لقد نظمت داخلى اشياء غرستها والدتى رحمها الله .. انك لم تعرف امى و .. ؟؟

— لا .. لا .. لم ارها متى ماتت والدتك ؟

— من علم تقريبا وبعدها جئت لأعيش معكم هنا .. المهم انها كانت ولوعة بالجمال ولا تطيق أن ينعدم الإحساس بالجمال حتى فى القبح ! تقول لابد ان فيه زاوية جمالية لم تكتشف ومن واجبها أن تكتشفها ..

— كيف .. كيف يا طنك احكى لى ؟

— مواقف لها كثيرة لا استطيع ان احصرها لك ولكن المهم انها نمت بقوة الإحساس بالجمال داخلى وانا بدورى بحثت عمن اعطانا الجمال من الأصل ..

فكر قليلا ثم قال لها :

— لابد انها كانت تحبك حبا حقيقيا .

— كانت تحب كل الناس .. داخلها طاقة احبت بها كل الناس .. ولهذا كانت تريد ان ترى وتحس وتسمع الجمال فى كل ما يحيط بى او بها او بكل الناس ..

— باي معنى يا طنط ؟؟

غرقت مها فجاة فى بحر من الضحكات وهى ترد لعمرو :

— باى معنى يا طنط .. ها .. ها .. ها .. انت دائما لا تفهمنى لكن لاول مرة سأروى لك حدوتة حصلت فعلا عن امى وستفهم منها شخصيتها وطريقة تفكيرها ..

— حقا يا طنط ..

— كان يتردد علينا مهندس لعمل بعض إصلاحات داخلية فى البيت وإعادة طلاء بعض الحجرات .. والدتى اقتنعت به .. وبذوقه .. وكذلك بالتكلفة التى عرضها عليها إلا انها احجمت فجاة عن التنفيذ .. كل يوم ياتى المهندس ويروح ولا تقرر موعد بدء العمل .. واخيرا واجهته ..

— واجهته باى شىء .

سكتت مها قليلا وهى تحدق فى وجه عمرو ثم قالت له وظل ابتسامة على شفتيها :

— لقد اصرت على ان يصلح شكل اسنانه اولا قبل ان يبدا فى العمل ..

فالمهندس لابد ان يبدا بنفسه ويهذب من شكل فمه اولا فمن غير المعقول ان يصنع القبح الجمال .. وكان لها ما ارادت فعلا .. إنه مثال بسيط ومضحك .

سألها عمرو وهو يغالب ضحكاته :
— وبعد ما أصلح أسنانه كيف كان يواجه والدتك ..
— كلما رآها ابتسم فتظهر أسنانه ويظهر الرضا على وجه أمى .
— وبعـــدين ؟
— هذه أيضا العدالة من وجهة نظرها .
— العدالة ..
— نعم من شدة يقظة الإحساس بقيمة الجمال فى أعماقها كانت ترى ان من العدل أن يكون الطرف الآخر مستمتعا بما تشعر هى به .. فجميل أن تعلم أى فرد الكتابة والقراءة وجميل أن توجه آخر للعلاج .. وجميل أن تعلم ثالثا كيف يأخذ حقه بل ويدافع عنه .. هذا هو جمال العدالة من وجهة نظرها .. وهكذا .. وهكذا يا عمرو ..
ولكنه قطع استرسالها فى الحديث ليفاجئها بهذا السؤال :
— وأين الجمال فى حياتنا يا طنط ؟
ووقف أمامها .. ثبت عينيه على وجهها ينتظر إجابتها .. لم تكن قد تخلصت نهائيا لا عقليا ولا نفسيا من كونها تحكى عن والدتها وما صاحب هذا من انفعالات وذكريات تعيشها بجوارحها .. كل ما استطاعت أن تحسه من سؤاله أن نبوءتها صدقت .. هنا تهرب السعادة دوما ولا تعرف لذلك سببا وفجأة أعاد سؤاله بحدة :
— يعنى لم تردى على يا طنط أين السعادة أو الجمال فى حياتنا ؟
سؤاله يترجم ماهى على يقين به وكانت ترفضه وتكذب نفسها بل وتحتسى إحساسها هذا وحيدة حتى الأرق وهى تحاول أن تنفى عن خالد أى اتهام .. وفى أحيان أخرى كانت تتهم نفسها بالجور والظلم وهى تعود لتهمس لنفسها وعلى استحياء بأن الجميع لا يعرفون معنى للسعادة هنا .. ترى هل هو نمط الحياة الجديدة هنا .. وهذا الاستقرار .. وتلك الرتابة التى تغلف كل شىء ومها اعتادت أجهزة نفسها أن تعمل سنوات من خلال دوامة ضاجة لا تهدأ تجد نفسها

فيها على أعلى قمة الموجة لتسقط بلا وعى إلى قاع هذه الموجة نفسها . حتى فى احلى لحظاتها وهى حائرة فى انتظارها لخالد بين ظلمة ليل طويل او شروق نهار مباغت ليأذن برحيله من خلال كل هذا كانت حياتها تتجدد لحظة بلحظة لتعرف فيها اكثر من مرة أن القاع البعيد مصيرها ولكنها لا تخشاه ولا تجزع منه ، دوما تؤكد لنفسها .. « ولماذا الخوف لأعيش ساعاتى او حتى ثوانى .. ما دامت أمى لى فهى الحصن الذى لا يتزعزع .. هى الشىء الباقى وبدوام .. دائما .. دائما .. يبقى الله للإنسان .. حدا معينا من الأمان » وهى أمان مها الذى لا يعرف الانواء بل على العكس يسحقها وفوق هذا يصنع منها مزيدا من التشبث بالحياة فى حد ذاتها .. فى هذه اللحظات كانت مها بكل جارحة فيها مع ذكريات حبيبة عن أمها ..

وانفلتت منها الآه وهى تقول « اينك يا امى اينك » ، واخرجها عمرو من شرودها الطويل وهو يتساءل :

— لم افهمك يا طنط لم ..

كانت تريد ان تقول له لماذا لا تشعرون السعادة وهل عرفتم غيرها هل عرفتم الإحساس بالذنب اللاإرادى والذى يؤرق صاحبه حتى الجنون .. هل عرفتم الإحساس بالجبر القدرى لانكم لا تستحقونه ؟

لم تتكلم مع عمرو ولم ترد عليه فقط كانت تتابع صوت خالد وهو يلقى بتحية المساء قبل ان يخرج إلى عالمه .. مرضاه وسقط الجميع بعده كل فى حاله ..

★ ★ ★

منى ورجاء تنامان محتضنتين اما روشتات المدينة الفاضلة او السماعة القديمة حول رقبة إحداهما .. الباب موارب يكشف عن مها وهى تسحب الطوق الطبى بلا مقاومة وتخرج إعترضها شقيق خالد الأكبر بابتسامة وهو يغمغم .

— ناس تلف الطوق بنفسها وناس تتمنى الخلاص منه !!

كانت قريبة منه وحافيةتسحب الباب من خلف ظهرها إلى ان اغلقته فلم يتحرك من مكانه إنما تلقف من يدها السماعة التى يلعبان بها وظل واقفا متصدرا فتحة الباب وهى لم تنزل بعد من على اطراف اصابعها .. برودة الأرضية وصلتها وهى واقفة . ثانية اخرى تتوقع فيها ان يفسح لها لتكمل سيرها ولكنه انزرع مكانه وهو يردد :

— ناس ترحب بالقيد وانا اتمنى منه خلاصا !

معنى الحرج استشعرته مها وهى تفكر انها لابد زوجته هل يضيق بها ؟ يقولون الطوق امراة .. تنتظر ان ينزاح قليلا لتسير فى اى اتجاه ولكنه على العكس تبعها إلى حجرتها وهناك اغلق الباب بعد دخولهما إذن لا فكاك .. ولم يمهلها إنما سالها :

— يبدو انك على وشك المرض ؟

— اى مـرض ؟

— مرض استفحل فى هذا البيت الـ ....

— مـاذا تعنى ؟

— مرض الصمت .. الخنوع .. سميها كما تشائين الا تفهمين ؟

جيوش الخوف تقتحمها بلا هوادة .. وهى التى كانت تنكر هذا الخاطر ان يقبع داخلها فترفضه .. ترفض الإحساس بتعاستهم .. تقلب الافكار داخلها انه خالد ليس كامها ربما له نفس خبرتها ولكن الفرق بينهما لا يمكن حسابه كالفرق بين ان يدفع الفرد .. ويحس بانه دابة تساق وبين ان يوجه او حتى يساق ويحس بتحقيق لذاته .. لابد ان يترك للإنسان رغم كل المحاذير ورغم كل الحب

فسحة يحس خلالها بذاتيته الهامة لابد من وجود وهم محبب فى أن كل ما يجرى بنا لنا — ولو إلى حد — ما خيار فيه . هذا الإحساس بالحرية مستلب من هذه الدار على رحابتها ضاقت إلى اقل من ثقب فى جلد وليد من ان تمنحهم معنى الحرية فقد يتحمل الإنسان مبدأ القطيع وهى تساق ولكن لا يرضى به إلى الأبد ..

والدكتور خالد جعل من نفسه منطقة جذب قوية عنده تتحقق الرغبات وتغزل الآمال ليصل بهم إلى أوج السعادة إلى ان يفيقوا فى ساعة يحددها هو على انهم عاشوا وهما فضيا او ذهبيا استلبوا فيه كل شىء حتى القدرة على الحلم الذى لا يتم إلا عنده وفى حضرته ودوما الحلم يبدأ قليل الوضوح والمعالم ضائع الابعاد ولكنه يظل يلح ويلح ومع الزمن تتضح الوانه وتتحدد أبعاده ليعوا انهم إنما عقدوا إتفاقا مع المحال ، لان ما يصنع لهم احلام خالد التى تاكل راسه هو اما ما يحلمون به فيجب أن توصد فى وجوههم كل الأبواب توصد بكل الطرق الهادئة او الناعمة بمعسول الكلام او بالبديل ، وفى البداية كانوا يصدقون ومع التكرار صار مكشوفا وصاروا فاهمين له اكثر مما يحسب .. ومع العمر يدب الذبول فى إرادة الإنسان فيحس اخوه الأكبر ان عمرو الأصغر الذى يدرس الفنون انتصر على خالد بمطلبه هذا وكثيرا ما تمنى أن يكون ترتيبه هو الأصغر .. وكثيرا ما توقفت مها عند هذه الحقيقة ذبول الأرادة او تطويع الأرادة ؟ وكثيرا ما تساءلت هل انتصار الصغير لانه الأثير — وكان اليقين داخلها يقول لا ولكن كما .. يطلع خالد على احدث اساليب وطرق المداواة فانه كذلك فى معاملته للصغير لياخذ ما ياخذ من احدث الشهادات والتراخيص ولكن ما سيمارسه شىء آخر تماما .

فى مرات ظنت مها ان دراسة عمرو للفنون ورغبة زوجها الحقيقية فى ان يتفوق ستكون مدخلا ليتغير ويقدر ما حاولته هى من قبل . فكانت لا تمل ولا تكل وعمرو يلح عليها باستفساراته الدائبة بل على

العكس كانت تؤجل الرد عليه حين يكون خالد خارج البيت وهى تسمع خطواته تقترب كانت تنخرط فى الرد باسهاب تشرح له وجهة نظر الدكتور عودة فى أن يتخلص الفنان من انانيته النظرة إلى الأشياء وأن يمتزج إلى حد الذوبان فيما يرى ويعايش إلى لحظة مسك الفرشاة هنا لابد أن ينعكس كل ما بداخله من احاسيس لتخرج على القماش المشدود امامه مغسولا بذاتيته الرحبة التى خلق لها وليست الأنانية الضيقة . وكان خالد يحاول إسكاتها غامزا لها بعينه لتتوقف .. ولكنها كانت تتجاهل ما يود أن يوصله لها تغض الطرف متعمدة او تزم عينيها ثم تفتحها كانها تستوضح الرؤية . الرؤية التى لا تريد ان تعيها فقد كان كل املها ان يتفهم خالد اولا ما تريد ان توصله لأثيره الصغير .. حسبت ان كل هذا الحب الذى يكنه له سيجعله محبا لما يريده ، فكان على العكس تماما اما ان يتشاغل بتقليب مجلة علمية أو يخرج على عجل . والذى لا شك فيه ان مها افلحت اياما تلو الأيام ان تقلقه حتى ضاق بها وبما تقول وهى الأمل يكبر داخلها فى أنه حين يواجه صراحة هذا القلق الذى تسببه له وحين يتعرف عليه سيتذوقه بل وسيعشقه .

★ ★ ★

• الفصل الثالث •



اليـوم من انجح ايام الدكتور خالد
انقذ فيه عمرا كان حتما مسفوكا لشابة
يعالجها ولها مع الألم درب طال . وقلب
جعله يحجم اكثر من مرة عن إجراء
جراحته حتي بعد أن يجهزوها له . فى كل
مرة يتسمع قلبها ويتسمع قلب نفسه ثم
يؤجل جراحتها إلا فى هذا اليوم الذى جلسوا فيه حول
الهاتف وضعوه وسطهم وتحلقوا حوله ولما دق كان هناك
معنى للانتصار يغشى البيت بمن فيه لقد نجحت جراحة
الشابة .

لا تدرى مها كم من الوقت مر عليهم وهم يتبادلون العناق فرحة مع انفسهم لنجاح عمليتها فى ركن قصى من حجرتها كانت « كاتى تغطى شعرها الاشقر لتصلى امام عذرية سيدتنا التى تحمل وليدا معجزة » ودمعة انسابت من عين مها وقبل أن تمسكها كان شقيق خالد الأكبر يترك لنفسه العنان ليسقط دفعة واحدة على الأريكة التى تجلس عليها سقطته احدثت دويا اجفلت له وهو يقول :

— لكم احســده .

فردت مهـا مستبشرة :

— تقصـد تحسـدها .

— لا .. لا .. احسد اخى الدكتور خالد .

دبيب أقدام جيوش الخوف هل تنوى أن تجتاح مها حتى وهى فى أسعد لحظاتها لحظة نجاح لزوجها ولكن قبل أن يجتاحها هذا الإحساس يأكل صدرها يبتلع لحظاتها كان شقيق زوجها يواصل كلامه :

— كل دقيقة فى حياة الدكتور هى انتصار لذاته حتى فى اللحظات التى كان يتردد فيها ويؤجل إجراء جراحتها كان القرار قراره .. أما نحن !!

ومرت الساعة وهو يحاول أن يتكلم كعادته مع مها ، وكانت العبرات تخنقه فيصرعها بقوة وهو يشعل سيجارته أو يلوح بيده وبدا مستريحا حين قامت « كاتى » لتبدل من ملابسها وذهب عمرو يبحث عن شىء يأكله وهو مازال يستبقى مها أمامه كلما حاولت الإفلات إلى أن سمعوا دوران المفتاح فى الباب الخارجى وكان الوقت على وشك الظهيرة .. شقيق خالد الأكبر يجاهد مع نفسه ليرسم ابتسامة يستقبله بها « وكاتى » خرجت بخطواتها المستقيمة من حجرتها مندفعة لتشد على يده وعمرو لم يقل شيئا فقد كان فمه ممتلئا ويده تمسك طبقا فيه أكبر قطعة حلوى فاكتفى بأن رفع يده علامة النصر وعاد أدراجه إلى المطبخ ، أما مها فقد تناولت حقيبته وهى تسأل « هل أفاقت من غيبوبتها بعد » وبهدوء كان الدكتور خالد يخلع ملابسه وهم حوله يناولونه أشياءه جرى عمرو يرد نداء الهاتف فنقلت مها عينها إلى عين خالد واطمأنت أكثر وهو يطلب منها أن تبلغ المستشفى أنه سيصحو بعد ساعة ليعاود مريضته .

★ ★ ★

حقيقة صارت بديهية لكل من فى هذا البيت بأنه يمكن من داخل قلب الإنسان استبدال قطعا بأخرى وقلب الشابة له يومان أكثر استجابة مما يتوقعون أيستحيل بعد ذلك أن تتغير الأفكار والأحكام : ؟ غرف القلب يعد لونها لقد صارت عملا ممكنا أما تغيير

اى فكرة فعندها تسقط سدود الغير ممكن والذى لن يكون وشعرت مها بانفاس التحفز تملأ المكان النوايا المنطوقة والصامتة تؤكدها هناك تحفز جماعى سيواجهون به خالد واستراحت لإحساسها بما ينوون هل لأنها اصبحت تكره القهر أم لأنها امتلأت حتى الفيض وهم سكوت تتكسر احلامهم التى تعبوا زمنا فى غزلها ؟

ان خالد باصابعه يعيد تشكيل حياة مرضاه وهو يشفيهم تراه يعلم بهذا النموذج من الألم الذى يحيا بينه ففى أغلب الأحيان لا تخرج الآه الخافتة او الصارخة منهم ولكنهم يألمون تراه لا يسمع الألم إلا من خلال اذنه المعدنية يضعها على صدور مرضاه يستنطقها فتحكى له متى بدأ الوجع .. وقطعوا عليها تلك الأفكار التى تبعثرت بشراسة داخل عقلها ولكن بقى فى اعماقها جليا سعادة ممزوجة باستطلاع مشبوب والكلمات تجر الكلمات حين انفجر عمرو الصغير :

— لقد قررت وانتهى الأمر و ..

قهقه خالد ضاحكا فامسكوا جميعا برقبة هذه الضحكة لتعلو القهقهات من حلوقهم وقبل أن تخرج من قلوبهم فوجئوا بسكوت خالد المفاجىء لبرهة اقصر برهة ولكن مها فهمت ان خالد عرف مالم يعلنوه بعد وبادرهم جميعا :

— تكلم يا عمرو انا منتظر ويسعدنى أن اعرف ما الذى قررته على الأقل من باب العلم .

ببراءة وسلاسة كان الصغير يقول له بأن قراره أن يستمر ليواصل خطا بداته مها انه أيضا سيترجم رسما ما يحسه تجاه آيات معينة او كما يتصورها و .. فقاطعه خالد :

— وماذا تفهم انت فى الآيات : ؟

— احبها كما أن ..

— كما أن ماذا هيا اكمل ؟؟

— كما إنها اتجاه جديد جدا يلفت النظر إلى أسرع و ..

هدات قسمات وجه خالد إلا انه تحاشى النظر إلى مها .. ظل يسمعه ويومىء براسه موافقا على ما يقول به عمرو من أهمية الإحساس الفنى بالنسبة له كشاب وفوق هذا كان خالد يؤكد له نفس المعنى باقوال واشعار تؤكد الفن وترفعه حتى إلى مرتبة الحب .
ومها تتابع حديثهما وتحدث نفسها « ربياه اين كان هذا مختبئا لم اكتشفه بنفسى » .

★ ★ ★

معنى الراحة من تفهم الدكتور خالد لعمرو أضاء الوجوه بفرحة يعيشون اللحظة بكلياتهم يعيشون بمعنى الأمل ومعنى تحقيق الحلم شفافية مسحت الوجوه وخالد تنساب كلماته بينهم ليضيف ان كل عمل يتقنه الإنسان إنما هو درب من دروب الفن ولكن لا يصل إلى جوهر الفن إلا من يضع يده فى اتونه الحارق .. وبدا خالد كفارس الحلبة .. اكثر منهم إحساسا بما يقولون واكثر تقديرا لما يأملون . كانوا ينوون تضييق خناقهم عليه فإذا به يبرق .. يلمع .. ينجلى فى هذه الليلة وهو يسترسل بجوارحه أمام معنى الجمال لا يكتفى بالكلمات فقط وإنما يعبر بيديه فى حركات كانه قائد فرقة موسيقية فتتعلق به عيونهم وقلوبهم .. واخوه الأكبر على جلسته يجتر الكلمات التى كثيرا ما أسكتها يبذل مجهودا ضخما حتى تندى جبينه وبدا العرق يبرق جليا عليها وهو يرتب الكلمات فى ذهنه ويختار بداية لكلامه فناولته مها ورقة شفافة من صندوق بجوارها تلقفها منها يجفف بها جبهته .. يحلم ان يسافر يجوب بلادا بعيدة يبدا فيها يكتشفها وتكتشف هى ما بداخله فهو يعرف ان داخله طاقات حبيسة ومازال ينتظر بصبر ان يبدا بدوره ليترجم حلمه إلى لغة يقتنع بها خالد الليلة بالذات ..

ورغم لا نهائية الأمل الذى يعيشونه يكاد الجميع أن يحصلوا منه على إشارة البدء لحياة يريدونها .. ومها بدورها يتجسد أملها واضحا ليلتقى على شوق بالغاية التى عشقتها دوما فدبت النشوة

تجرى مجرى الدم فى كيانها حتى تندت جبهتها هى الأخرى من شدة الانفعال ومدت يدها برفق تسحب ورقة لحظتها اخرج لها خالد فجاة ورقتين قدمهما لها وهو ملتفت إليها بنصف وجهه قائلا :

— لا داعى للقلق ساستمع إليكم جميعا .

تصلبت على مكانها ماخوذة فلم تكن تتوقع من داخل سحابات كلماته واشعاره التى يحفظها ويلقيها لعمرو لم تكن تتوقع ان يبقى جزء من نفسه على وعى بما يجرى حوله بل وقادر على عملية الربط الدقيق بين ان تتندى جبهتها وقد حدث هذا لأخيه الأكبر من قبل وهذا دليل الرغبة الحبيسة فى الافصاح والكلام . ولكنها افاقت على ابتسامة مسموعة لخالد بعدها كان يوجه كلامه لأخيه وزوجته الانجليزية :

— وانت جاء دورك ماذا تريد يا بنى ؟

ابتلع احمد لعابه فجرى ذلك البروز الواضح فى رقبته بسرعة . تفاحة أدم المعلقة فى رقبته ترتعش كانها تحثه ان يبوح بما يجيش فى صدره ومعلق على طرف لسانه وابتلع لعابه مرة اخرى كانه يستعذبه كان الكلمات لها مذاق ما وهو مصمم ان يحسه وعلى شفا ان يبدا إذا التفت خالد إلى عمرو الصغير وهو يقول برفق شديد :

— عمرو .. كل هذا لا يمنع من انى سافتح لك معملا لصب الأسنان الصناعية .. هذا هو الفن ولكن اولا انتهى من شهادتك المهمة جدا وباعلى تقدير ..

★ ★ ★

بقيت مها على جلستها معلقة بجواره لم تستطع ان تبتلع عبارته ولا هى قادرة على القيام من مكانها معلنة رفضها لما قال .. إحساس بالقهر سلبها كل إرادتها فتراخت حتى لامس ظهرها مسند الأريكة الغصة تمسك بها من حلقها وكان شعورها باليأس الكبير من عبارة زوجها سلبها حتى القدرة على البكاء لا تريد ولا تجسر ان تنظر إلى وجه اى منهم لانه فى نفس هذه اللحظة تعرفت وجها لوجه على

جيوش الخوف التى تطاردها انه هو خالد نفسه وجوده يخلق معنى الخوف فى هذا المكان .. ولما وصلت مها إلى هذا اليقين ألقت براسها إلى الخلف تحدق فى أركان الحجرة الأربعة . هل تحاول أن تعرف ماذا كان يرون فى السقف بالساعات ؟ أم انها تتمنى أن تجد ما يستبيح انتباهها ويخلصها من هذا الموقف .. وكان هناك من يحاول أن يشد رقبتها بعيدا عن تصلبها إلى السقف .. بذراعيها الخفيفتين تحاول أن تطوقها .. لمسات يدها خفيفة وصادقة ما أحست مها باحتياجها إليها قدر هذه اللحظة ولكن خالد استدار لياخذها منها والصغيرة راضية تنوى أن تكمل نومها بين ذراعيه وهو يستقبلها فى صدره كان يقول :

— تتكلمون عن الجمال ولكم كل هذا الا ترون معنى الجمال والطهر .. بعدت مها بعينيها عنه فاشاح فورا بوجهه والتفت إلى اخيه الاكبر وهو يساله برفق :

— كنت تنوى أن تكلمنى انت الآخر .. انا كلى آذان لك ..

نظر اخوه إلى ساعته مرة ثم مرات فى محاولة للرد ؟

— حقا إننا فى نهاية الأسبوع .. لم اكن اتصور أن الأيام تمضى بهذه السرعة .. والساعة قاربت .. اظنك متعبا يا دكتور .. انا كذلك و « كاتى » بالتبعية .. افضل أن استريح انا وهى وانت .. العشاء حقا .. لكن لا شهية لى .. ما رايك .. ألا ترى أن .. كان اخوه يتكلم ليملأ مساحة زمنية معينة حتى يجد مخرجا يتعلق به ليعبر من امامه وكان له ما أراد .. اما مها فبكل وضوح وبشكل قاطع تماما ايقنت إنها لن تعود لفرشاتها والوانها لن تكون مـا حلمت أن تكونه ..

★ ★ ★

الوجوه فى هذا المكان أليفة إلى مها .. كل الزوايا تحفظها عن ظهر قلب كانها تتمشى داخل نفسها ولهذا تاتى لنفسها فقد غابت عنها حتى اوحشتها فى هذا المكان عرفت معنى لكلمة رددتها صغيرة .. رددتها تشبها بالكبار دون ان تتذوق معناها كاملا ولكن لتحصل على اعلى درجة فى موضوع الانشاء عرفت معنى تراب الوطن وحوائط الوطن ورمال الممشى الصفراء .. كلها اشياء عشقتها حتى تساءلت هل قمر وطنى قمر لكل الأوطان ؟ وكان ردها بلا .. ولا يمكن لان إطلالة القمر على ارضها تمنحه بلا نهائية معنى آخر وله فوق هذا لون آخر وحكايات اخرى بل متفردة القمر هنا يحكى لها حكايته التى تقال مرة واحدة ولكنها فهمتها تماما رسالته تقول سترسم ستخطط بفرشاتها كل ما تريد ومهما يكن وتحت اى الظروف « عندى انا ستحقق يا قمر نظرية المواءمة بين ما يريد العالم وما اريد انا » .

★ ★ ★

الوجوه فى هذا المكان أليفة إليها .. هنا كانها تتمشى داخل نفسها ولهذا تاتى لنفسها فقد غابت عنها حتى اوحشتها وتبحث عن شادى فقد نوت ان ترسم الصدق وتريد ان تكلمه فيما اختارت وحين التقت به اخذ يحكى لها عن افكار يصممها كلوحات دائمة لإحدى المسرحيات والمعرض لا ينساه خصيصا ليشاركها .

حلت لها ايامها بمذاق اوشحها إلا من شىء واحد ينقصها رؤيتها للدكتور عودة وتلحظ هذه الاجتماعات التى لا تنتهى مع إناس من خارج الكلية لاقدامهم وقع حاد .. ومها تتفهم اشياء كثيرة باذنيها اولا تتسمع دقات الحدث ثم تستوضحه كانوا يدخلون ليموت الزمن بعدهم .. تتوقف دنيا الكلية .. لا يسمع صوت الدكتور عودة يلقى بتعليماته هنا وهناك حتى اجراس مكتبه تصعق ساكتة .. فلا شكاوى ولا مطالب والجميع صامتون كان بينهم اتفاقا مسبقا على ان يقتاتوا هذا الموقف .. هذا المشهد اليومى بكل هذه

السكينة او كان اجراس دخولهم صارت معلما من معالم البهو الذى يقفون فيه ؟ وفوق هذا تتزامن دقات اقدامهم مع دقات الساعة المعلقة فى آخر الممشى هناك : تك تك .. تيك . ويعلقن بعض الطالبات بانهن رجال بوليس والعبارات تنفلت من هنا وهناك .. « انظرى إلى رؤوسهم وهذا الشعر المهذب القصير تعرفين انهم بوليس .. الوان سواعدهم .. اجسامهم ها .. ها .. ها .. شارب الضابط انا اعرفه .. إلخ .. »

هناك شيء ما يحدث لا يفهمونه .. يحاولون الدخول إلى الدكتور عودة فتمنعهم سكرتيرته باكثر من اعتذار ولا يجدون أى إجابة شافية لدى اى استاذ آخر فالبعض يهرول خارج الكلية والبعض الآخر يسرع بدخول إحدى القاعات ليبكر بمحاضرته .. وثالث .. ورابع .. هناك شيء ما يحدث لا يفهمونه ! ؟

★ ★ ★

وتمر الساعات بعدها يخرج عليهم الدكتور عودة يجفف وجهه ويعيد وضع نظارته شديدة السمك على عينيه ينادى مها ويرفع اصبعه محذرا بان موعد المعرض قد ازف وماذا تعملين ؟ وماذا تعملون ؟ كانه يريد ان يانس بهم يسمع آلامهم التى يحلمون بتحقيقها فالرغبة واحدة داخلهم ان ينقشوا حواف لوحاتهم من وهج الشمس التى الفوها لانهم عرفوها فى أحلامهم .. ويتكلم شادى عن لوحات المسرحية المطلوبة منه .. وآخر يعلن بانه مرتحل إلى بلد عربى ينوى عملا هناك حين اسدلت إحداهن جفنيها .. سيرحلان معا يشد كل واحد منهما على ساعد رفيق دربه .. اما محمود فيجهز لدراسات تكميلية اثناء عمله كمعيد فى الكلية يبدو عليه الإرهاق فالمادة فضفاضة عن تاريخ نشاة الفن والمراجع عديدة وعملية الانتقاء رسمت على وجهه شحوبا سحب معه سحنته بنوع من الإعياء فبدا الضنى تحت عينيه ظلالا .. وكثيرا ما عرض عليه زملاؤه المساعدة وكانوا صادقين فيما يعرضون فكان يشكر الجميع لان واقعه الذى يعيه تماما ان عليه هو وحده تصنيف هذا الكم

الذى لا أول له ولا آخر عن نشاة الفن حتى يخرج ما يريده على الورق كإضافة علمية لم يسبقه إليه احد ..

وعلى غرابة ما يجرى امام عيونهم وعلى كبر الأحلام والأعمال التى بدأ أغلبهم يحققها فلن اى حدث لا يشغل بعضهم عن مها بدرجة أن يفوتا الفرصة لايلامها فسمعت إحداهن تقول لها وجها لوجه :

— هيا .. ياست مها تظاهرى بالحلم أو السرحان أو حتى البكاء لتلفتى نظر المجموعة إليك .. ها .. ها .. ها ..

إلتفتت إليها مها بدهشة ورأت فمها تجويفا أسود ولسانها يهتز صاعدا هابطا فيه فبدا لعينيها كذيل حية يلدغها بل وتفلح فى كل مرة أن يصل سمها إلى قلبها .. فشعرت بالوجع الأليم .. وبطرف عينها ودون أن تلتفت برأسها كانت تبحث عن شادى وقبل أن تتجه إليه كانت الأخرى تقول :

— إلحق .. الحق ياشادى إسند مها قبل أن تتوه فى غيبوبتها الفنية .. قبل أن تحضر عليها عفاريت الآيات التى ترسمها ..

هبة لافحة وخاطفة كالنار لطمت وجه مها فالتفتت بقوة وصوتها صرخات ناقمة على رأس زميلتيها :

— لكل شىء حدود .. وأنتما خرجتما عن أبسط حدود اللياقة والأدب كذلك . قاطعتها إحداهما وهى تقترب بجسارة نحوها .. :

— ماذا أرادت العزيزة أن ترسم للمعرض؟

سؤالها أنبت تحديا اقتحمها مدفوعا بقوة أمواج عارمة من المهانة والضيق فقالت من فورها ..

— سأرسم الصدق .. وسأرسم كذلك الكلمة الخبيثة التى اجتثت من فوق الأرض ..

— الله .. الله ياستنا الشيخة .. زيدينا ..

بعد أقل من دقيقة واحدة كان هناك أكثر من وجه آخر يتجمع تكاد الأذن تتلاصق بجوار بعضها من التصاق الاصداغ قريبة من بعضها وسمعت :

— كان حقها ترسم الوضوء وغسل الخيشوم أو غسل الـ ..

وكأنهم ألقوا بها فى قلب حفرة من لهب .. اللسع .. والحريق انتقلا من وجهها إلى كل جزء فى جسدها القليل التكوين وابتدأ البعض يضحك .. علت القهقهات الساخرة تزيد من ثورتها حين اتجه إليهم الدكتور عودة كان قد فرغ لتوه من الحديث مع إحدى طالباته والأكيد أنه سمع العبارة الأخيرة ، وقبل أن ينطق كان إسماعيل يقول :

— يادكتور .. لماذا عملية الاقحام هذه فى الفن .. الدين شىء مقدس ومها بطريقتها هذه بتجعله متداول حتى فى الفن ؟

انتظرت مها مع الآخرين إجابة العميد وكلها جزيئات تغلى تفور إلى أعلى رأسها ثم يهبط الفوران إلى أسفل قدميها ولكنها النار تدار بها جزيئات دمها من أعلى إلى أسفل والدكتور عودة يتقدم خطوة بخطوة إلى أن وصل إلى إسماعيل فوضع يده على كتفه ودعاهم جميعا إلى حجرته ولكن بعض الزملاء قرر الانسحاب فلم تكن تعنيه المناقشة أصلا ومن بقى منهم كانوا فى لهفة لسماع ما يقال .. ومها تدق رأسها كلمات زميلها « لماذا عملية الاقحام هذه للدين فى الفن .. الدين شىء مقدس .. مها بتجعله متداول حتى فى الفن .. ولكنها انتبهت على كلمات العميد يقول :

● من كتاب الأدب لمحمد قطب

— يابنى الفن هو الذى يهيىء اللقاء الكامل بين الجمال والحق سبحانه وتعالى .. فإذا كان الجمال حقيقة فى هذا الكون وهذا ملموس فعلا فإن الحق هو ذروة هذا الجمال ومن هنا يلتقيان فى القمة التى تلتقى عندها كل حقائق الوجود .

★ ★ ★

ورغم أن مها لم تع تماما معنى عبارته إلا أنها أحست إنها فى صالحها فهدأت دماؤها فى عروقها واسترخت بظهرها إلى الخلف بقايا لهاث كان يمرق من صدرها إلى فمها فاطبقت شفتيها بقوة حتى لا تخرج أنفاسها تعلن خمود ثورتها أو تأججها حين سمعت :

— بعد إذن سيادة العميد .. لماذا لم يترك لنا الأولون اى دلائل على وجود فن مثلما عمل الإيطاليون أيام نهضتهم مثلا ؟
فكر الدكتور مليا ثم عاد ليقول :
— هذا السؤال أجيبك عليه للمرة العاشرة هذا الأسبوع .. إن هذه العقيدة الجديدة كانت تنشىء النفوس إنشاء من جديد .. تغسلها من ادران الجاهلية .. ومن تصوراتها الخاطئة .. وبذلك ملأت الفراغ الحادث أولا بأول بتصورات ومفاهيم جديدة .. ولا تنسوا الانبهار الذى تلقى به العرب القرآن الكريم .. يمكن ان يكون سببا من أسباب توقفهم فترة عن التعبير الفنى فاستوعبت طاقة الفن من داخلهم واغنتهم مؤقتا عن جمال الأداء بجمال التلقى والانفعال الذى لا يقل فى روعته عن جمال القول أو الكتابة أو الرسم .. ثم التفت إليهم جميعا وهو يقول :
— فما المقصود بالفن ؟ طبعا هو أن أصنع مجالا ليشجى نفسى ويبهرها وأنا أستطيع ان اصل إلى هذا اما بنفسى أو برؤية ماهو جميل .. وفى اعتقادى ان مها يشغل الكون مساحة كبيرة من نفسها فهى تحس الجمال المبثوث حولها أو بمعنى اصح لديها الوقت لتحس بجمال الكون .
قاطعه إسماعيل مرة أخرى وهو يقول :
— يا افندم داه موضوع بعيد عن مها نهائيا ..
فقالت من فورها وكأنها تشكوهم لأستاذها :
— تتصور يا دكتور يسخرون منى .. يقولون بأنه سيأتى الوقت الذى سأرسم فيه غسل الخيشوم أو الـ .
ضحك الدكتور عودة وهو يقول :
— الجمال موجود .. والحق ذروة الجمال .. ومن هنا ارتباطهما ببعض .. فكيف ترسم القبح ؟ لا .. لا .. لا ..
انبرت إحداهن وهى تحاول أن تتماسك لتبدو هادئة فى سؤالها :
— يادكتور على هذا يعتبر رسم جسد المرأة والرجل حراما و ..

قاطعها العميد قبل ان تكمل استفسارها وهو يقول :
● من كتاب الأدب لمحمد قطب
— افهم ما تقصدين .. الجمال الجسدى جمال .. ولكنه لا ينبغى ان يجاوز مكانه المقدور فى لوحة البشرية ولوحة الفنون فالحياة الإنسانية لحن متكامل يعبر عن الإنسان بمجموعه لا عن جسده وحده .. بل ان من عجائب الله المعجزة فى خلقه هذا الكائن البشرى بتلك الموهبة الفذة موهبة الإحساس بالجمال التى تتجاوب مع روح الكون العميقة تجاوبا مباشرا كما تخفق العين للضوء وتخفق الأذن للأصوات .. إرسمى بريشتك كل شيء فى الإنسان بامانه كاملة ما فيه من سمو وعلو فنحن من روح الله وارسمى كذلك ما فيه من نقائص وضعف بشرط ان تجسدى معنى الهبوط لا على انه الأمر الواقع الذى لا مفر منه ولا امل فى الارتفاع عليه .. لا تنسى ان داخلنا الاثنين و ..
حادا خرج صوت إسماعيل وهو يقول :
— النقيض ايضا خطأ يادكتور .. ان اللوحات التى تصور دوما إنسانة محلقة نتيجة لسموها .. الحقيقة ان ساعات الارتفاع عديمة الأثر فى واقع الحياة وان الذى يؤثر فعلا فى خط الحياة هو لحظات الضعف الكثيرة المتجمعة فى مجموع الأفراد وان الشخص الذى يشذ ليؤثر الارتفاع سرعان ما يندم وتكون نهايته إما أن يسير مع القطيع او ينتحر و ..
— يؤسفنى ان اقول لك يابنى ان الأدب الاغريقى افسح مجالا عريضا للمشاعر المادية وكان رائعا بكل المقاييس الفنية وورثت اوربا هذا التراث الاغريقى وحافظت على البعد المادى فيه من المشاعر والأحاسيس ومع ذلك كانت معقولة وموزونة إلى حد ما حتى ظهر فرويد يفسر السلوك البشرى كله من خلال الغريزة ..
وفجاة كف الدكتور عودة عن كلامه .. كانت لحظتها أجراس الهاتف تتوالى فى دقها والسكرتيرة تدخل تهمس فى أذنه والأقدام التى يعرفون وقعها تقترب فيتابعون خروجهم وكان أصواتها

تسوقهم كل منهم يلملم أشياءه .. لم يكن لديهم وقت حتى لتحية الدكتور العميد .. وانتظرت مها لتكون آخر من تخرج وعلى أول خطوة لها فى البهو كانت تقول متانية .. وقاصدة أن تسمعهم جميعا :

— أنا ما أردت شيئا مما تزعمون إنى أرسم ما أحس به فقط .

وانبرت مرة أخرى واحدة منهم :

— وماهى احاسيسك يا ست مها ؟

وبعدها مالت الرؤوس على بعضها وخفتت الأصوات توشوش بعضها البعض وخرجت مها بشىء كريه فاى اتهام غبى يرموتها به .. اى اتهام تشير به العيون عنها وشادى معها ! ..

ان ما كان له مذاق المرارة اللاذعة التى تنبت فى صحراء لا تعرف إلا السراب .. ان الاتهام كان بمعنى انه كيف تخرج الفضيلة من امراة مثلها لها علاقة بهذا الفتى زميلها ؟ وقبل ان تستوعب مها ضخامة ما يرمونها به كان إسماعيل يلقى عليهم تبريرا يدوس به راسها حين قال :

— إنهما يعملان سويا وهذا ما يقربهما لبعض ان تبادل الانتاج او الأفكار هو السبب النهائى لهذه العلاقة وهذا طبيعى ولا يجوز الخوض فيه مرة اخرى لنقربه فقط هذه العلاقة نتاج ما طرأ على اسلوب الانتاج او الابداع فى هذه الكلية يا عالم .. فضونا من هذه الحدوتة ..

★ ★ ★

ومها تجرى عائدة إلى بيتها .. خطواتها واسعة .... تقفز بها فى الطريق فبدت أطول من حقيقتها تريد ان تصل إلى بيتها تحتمى فيه وتلوذ بمن فيه وهى على جريها تهز راسها بشدة كانها تريد ان تسقط من بين تجاويف عقلها ما فهمته منهم ..

ولما وصلت كان زوجها الدكتور خالد اول من رأت على غير العادة

فى هذه الساعة منتصبا وسط فتحة الباب فبدا لعينيها اكثر ضخامة من حقيقته وكان سؤاله لها واحدا :

— اين عمرو ؟

— لا ادرى .. ربما سبقنى او مازال فى الكلية ..

وصلها سؤاله بصوت يحمل بوضوح معنى الضيق إلى حد انه كان مصوبا بصره مستقيما اعلى من راسها حتى لا يراها واستمر يقول :

— عمرو اكثر من ابن لى واحب ان اوجهه كما أريد و ..

قاطعته مهـا :

— وجهه كما تريد هل تدخلت فى ذلك ! ؟

ما زال الدكتور خالد ينظر من فوق راسها حتى لا تتلاقى عيونهما وكل ما زاده ان مط من شفتيه امعانا فى إظهار الضجر وهو يقول بصوت لم يحاول حتى ان يجعله خفيضا :

— لا ادرى .. لا ادرى بما يحدث فى هذا البيت من يوم ان وجدت فيه ؟

فاستدارت مها وتركته وهى تستعيد عبارته « لا ادرى بما يحدث فى هذا البيت من يوم ان وجدت فيه » لتسال نفسها « إذن انا موجودة فى غير مكانى .. ولكن ولكن من الذى أوجدنى هنا ؟ وأين يجب ان أكون ؟ » ..

لفت ذراعيها حول صدرها كانها تحمى نفسها بنفسها وهى سائرة فى الممشى الطويل إلى حجرتها .. فقد كان حارقا حارقا ياكل عظام صدرها .. يلدغ لحم وجهها معنى واحد تكرره لنفسها « اين يجب ان اكون » ؟ ..

★ ★ ★

• الفصل الرابع •



نبتة الغضب الغزيـرة بأوراقهـا
المسنونة تصل إلى نبرة صوته فتذبح
كلماته كلمات قليلة يتبادلها مع زوجته
ومع مشرق كل يوم جديد يقتطع من هذه
العبارات حتى صارت ايماءات وإشارات
وإذا غلبته غريزة الحكى والكلام فينطقها

انجليزية مع زوجة اخيه .. كأنما اراد ان يغير لسانه ليتغير فكره فيقتلعها منه .

يفضل ان يتناول لقماته القليلة فى مستشفاه .. اما ليله الطويل فكان يقضيه خارج حدود يمكن ان تكون فيها وانتبهت مها على لحظة اصبحت فيها تتردد فيما يشبه الحياء ان تبادله كلمة ! .. وامسكت بنفسها ليلة تغطى جسدها لان زوجها دخل عليها فجأة سهام نازفة داخل نفسها جعلتها تتراجع المرة تلو المرة قبل أن تقدم عليه حتى لتسوى له ربطة عنقه ! نبتة الغضب المسنونة تضعها فى جفاء مقنع على بعد منه ، على بعد لا يستهان به .

وفى لحظة قبضت مها بيدها على الهواء كمدا ولم تفتحها إلا لتمسك فرشاتها .. ألوان الحريق الداكنة تخلطها وتمزجها لانها تعرفها واقعا موجودا .. طوال وقفتها امام اللوحة وهواء ساخن يلف عنقها يشك جلدها ويوقف مرور النسمة عنها . فتركت فرشاتها وتركت جسدها يسقط فى اى مكان واخترقت اذنها مدوية كلمات إحداهن « الحق يا شادى مها قبل ان تروح فى غيبوبتها ها .. ها .. » مجتمع الكراهية تتنفسه .. الشقة فيه تتسع حتى الخجل من

زوجها ! لم تدر مها كم من الوقت مر عليها لحظة ان شعرت بابنتها تغرس فمها المبتل دوما فى صدغها فاجفلت ولأول مرة كانت تشير لها بحدة ان تاوى إلى فراشها بجوار اختها .. هل مر عليها ثلث الليل الأول الطويل ام ثلثه الآخير وزوجها يدير مفتاحه فى الباب وهى على جلستها تظاهرت بالنوم العميق ، قلبها صفحة مقروءة امام عينيها ترى اندفاع الدم فيه وانحساره عنه فيشكل دقات فى اذنها .. هذه الدقات تختلط بوقع اقدام خالد لانه يقترب .. يقترب ولكن عند مدخل الحجرة بدأ يتراجع اليقين داخلها بان خطواته أسرع وهو يبتعد ليدخل حجرته فغاب صوت قلبها عنها . وهناك ايضا فتح حجرة عمرو ليطمئن عليه .. اما الأكبر وزوجته فقد ذهبا يمضيان سهرتهما فى مكان يريده خالد الأمل داخلها فى انه لابد سيعود فتمنت لو ارتدت قميصا اجمل لو سوت شعرها المكوم خلف راسها لو وضعت قطرات من عطر جديد .. لو .. لو .. لو .. ثم كانت بكامل يقظتها تدور بعيونها هنا وهناك بكامل وعيها لا تصدق لانها لا تريد ان تصدق انه يحكم غلق باب حجرته تماما !!

★ ★ ★

ومضت الليلة بطولها الطويل مسهدة فماذا يعنى كل ما اتى به ؟ ! وحئيثا بدأ طلوع الفجر عليها . تفكر ان تجهز شيء تحتسيه يخفف وحده المكوث الليلى طويل الطول . حثيثا كان الفجر يؤكد طلوعه عليها وهى تدفع بيدها خشب النافذة إذا اصطدمت مقلتاها. بشجرة ترى الشجرة قد حلا لها أن تنبت وسط هذا الخضم من المبانى الشاهقة وعلى ارض اصطناعية من الأسفلت الاسود ومع ذلك الشجرة مورقة تحمل مئات العصافير وتحدث اصواتا عالية جدا ! وتساءلت ما الذى تقوله كل هذه العصافير ؟ السؤال نبت فى عقلها من علو الاصوات التى وصلتها ازيزا وزنا . لم تطل تساؤلاتها إذ قفز إلى ذهنها صديق طفولتها الذى كان يمسح دموعها وكان هو سبب بكائها كانا يسمعان سويا صوت ذكور النحل فيخافان ولكنه

كان يقول لها « لا عليك .. يجب ان تعرفى فقط ان الذكر إذا لدغ إنسانا ترك ذيبانه داخل جسده والحل فى هذه الحالة ان تضعى قطعة طين مبتلة مكان اللسعة » .. الف الف صوت زنان فى اذنيها الآن .. ورحل الفجر عنها وبدا شعورها بوجود الشمس فتلفتت عليها لم تر اشعتها ولكن الضوء وبدايات دفء يوم خريفى يؤكد ان من تحرك الزمن وصلت الدفء .. المارة .. العربات .. إيقاع الحركة فى كل مكان يؤكد النهار وازيز صوت العصافير مازال عاليا .. فى اقصى درجات ارتفاعه وضيق سقط عليها الضيق يداهمها بتأكيد حتى احتواها . الأصوات تعلو داخل مخها فتسمعه زنا جماعيا كانه النذير ! تتساءل هل اصبح للعصافير ازيز وليس تغريدا ؟ وبلا وعى وجدت نفسها تصرخ من النافذة تصرخ فى العصافير « طلع النهار ومازلتم تغنون .. فى بيتى هناك بيت امى كان لكم وقت الفجر فقط .. و .. » توقفت عن الكلام وبحركة لا إرادية ارتفعت يدها بلطمة قوية على فمها تغلق شفتيها خوفا « رباه ماالذى اقوله !! » ودارت عيناها بسرعة عن عمد تمسح وتتكشف نوافذ الجيران تتمنى أن لا يكون احد سمعها ولما اطمانت قررت الانسحاب وبدورة واحدة كانت تستدير مغادرة النافذة لتتستر بسقف البيت إنوجدت فى مواجهتها خالد شاخصا إليها وبنفسه كان يتلقفها قائلا :

— يبدو أنك على وشك الجنون .. بل انت فعلا مجنو ...

— منذ متى وانت واقف هنا ؟

— من اول صرخة فى العصافير يا .. يا حرم الدكتور خالد طلعت .

— وماذا بعد ذلك ؟

— لم تكن امك مخطئة حين كانت تناديك بالبلهاء .

اثارتها عبارته ففتحت فمها تريد ان ترد عليه بكل كلام ممكن ولكنها فتحت فمها لتاخذ اوسع شهيق فقط ثم اغلقته وبقيت كالبلهاء فعلا لها شدقان منتفخان !! فى هذه اللحظة مرت على بعد



خطوات منهما « كاتى » حافية القدمين وعلى اطراف اصابعها عادت بعد ثوان تحمل بين يديها كوبا ساخنا من القهوة التى يطلبها خالد باستمرار وبهدوء هامس ناولته إياها لم تحاول مها ان تتسمع الكلمات التى يتبادلانها وبنفس هدوئها الوافد كانت تستدير تدريجيا إلى ان صار ظهرها فى مواجهة مها تماما وانخرطا فى حديث متجاهلة حتى ان تبادل مها تحية الصباح . فبدت وحيدة فى وقفتها إلا من صوتيهما وذلك الحديث الهامس المتفجر يؤكد لها الشعور بالاهمال والنسيان . فانسحبت بلا قصد محدد لتصطدم بعمرو وعلى وجه جديد من السرعة كان يقول لها باقتضاب شديد انه لابد ان يذهب للكلية فورا لأجل .. ومن اجل !! يعاملونها باسلوب جديد .. يتلمسون الهرب منها اما عمدا او باعذار وليدة اللحظة صوتاهما يصلانها « كاتى » لا تتمالك نفسها من الضحك ! فكانت هذه هى المرة الأولى التى توقن مها فيها إلى اى حد يملك زوجها ان يضحك من فى هذا البيت او ان يبكيهم او يفعل الاثنين معا فكثيرا ما كانت تحتاج ان تحدق طويلا فى وجه احدهم لتفسر إن كان باكيا ام ضاحكا . مشيت خطوتين إلى المرآة المعلقة عن يمين الحجرة قرب الباب وسمعت خالد وهو يقول بحده :

— كنت تريدين ان تقتنى كلبا يا كاتى ؟

قفزت على وقفتها فرحا . فاكمل خالد كلامه :

— ولكنْ هل عندك وفاء حتى لا تقتليه بنفسك او برجال الشرطة ؟ !

اجفلت مها متراجعة من امام المرآة ووجدت نفسها تتعمد ان تتبين ما يدور بينهما ولما أحس خالد بانتباهها الموجه لهما بادلها نظرة سريعة فاحست بعينيه غريبتين وللحظة تجسد حى امامها حقيقة ان الإنسان إنما بنظرته تتشكل ملامحه .. فعيناه اجنبيتان عنها .. ليست عيناه التى عرفتهما ورغم ذلك ظنت انه يشركها فى حديثهما .. انه يجد لها منفذا ليتبادلا كلمات سويا حتى

لو كان المنفذ جارحا كحد سكينه الأليفة ولكنه قطف الأمل قبل ان يكبر موغلا يملأ وعيها بانه إنما اراد ان يشركها فى حديثه بطريقته الدامية .. طريقة كل الأطباء .. وبدون مواربة كان يوجه كلامه إليها :

— حقيقة للآن انا لا اصدق ما فعلت بالكلب . ولماذا كنت تكرهينه ؟ !

فقالت :

— لم يكن امامى ما افعله غير ذلك . هل كنت اتركه ينشر عدواه لبناتى أم لأطفال الجيران ؟؟

— هذه قسوة فظيعة . هل نزعت الرحمة من قلبك ! ؟

واغرقت عيناه بالدموع المرئية للحظة ثم بقيت آثار هذه الدموع معلقة باهدابه بعد ذلك . اما مها فقد وقعت فى حرج شديد من كل ما يقول وخاصة ان « كاتى » تحاول ان تتفهم عربيتهما والتى كان واضحا إنها تفهم كل شيء وقتما تريد ان تفهم اى شيء وقالت :

— ولماذا لم تشعر بانى قتلت الكلب إلا الآن . اين انت من زمن ؟؟

خطف آخر عبارتها من فمها وهو يؤكد :

— بل انت التى لم تشعرى .. لو عدت بذاكرتك إلى تلك الأيام ستجدى اننى كنت كثير الاعتذار عن الطلوع إلى بيتك لأنى لم استطع ان انسى انك قتلتيه وعن طريق الشرطة !!!

— وهل كنت تتصور ان اقتله بيدى ؟

— إنما الأدهى من ذلك انك حكيت لى وبنفسك كيف كان مهيبا يحاول ان يقف على رجليه رغم الطلق الأول .. احكى لى .. احكى مرة اخرى كيف نزل السلالم القليلة إلى ان مات ؟؟ !!

— هى كما حكتها لك من قبل ..

— قلت ان الجيران كانوا فى النوافذ والشرفات ؟ !

— فعلا هذا ماكان يا عزيزى .

— وتقولين يا عزيزى وهل تعرفين انت معنى هذه الكلمة ؟ انت مختلفة عنى كلية . انا كلما عاشرت عز على الفراق .. انا .. انا .. احتفظ بالشىء لأنه عاشرنى حتى لو بلى فما بالك بروح !

وجرى خطوتين إلى احد ادراج ملابسه واشار باصبعه إلى أشيائه القديمة تلك التى يحتفظ بها ومنها حافظة نقود امسكها يقربها إلى عينها .. يقربها اكثر مما يحتمل بصرها حتى لامست انفها فشمت رائحة الجلد المغسول بعرق الاستعمال وقال :

— لا اتصور ان القى بشىء لانه قديم او اصبح غير مفيد ! لأنه صاحبنى عمرا . اما انت

— انا ماذا ؟؟

وصمت الدكتور خالد تماما .. لم يضف بعد عبارة « اما انت » كلمة ترك لها حرية المراة الكاملة فى ان تتم عبارته تبعا لمزاجها الحر فربما تكون « اما انت الخائنة » او « اما انت من لاتعرف الوفاء » او « انت من لا يجدى معها معروف » .

فقالت بغيظ واضح :

— اما انا ماذا ؟ اما انا ماذا ؟

وعادت الدموع غلالة ملحوظة تملأ عينيه ولكم عشقت مها عينيه وغمغم لنفسه هامسا فى تساؤل خفيض :

— فى يوم ما ساضعف وربما امرض واشيخ من المؤكد انك ست ...

فصرخت مها بحنق كبير :

— ماذا دهاك ؟ وكيف تقيس نفسك بما فعلته مع الكلب ؟ وكيف تتصورنى ؟ يا إلهى من انت ؟ !

وقبل ان تزيد اى كلمة على ما قالته كان زوجها يضع يده بغتة على فمها ليسكتها وهو يردد بصوت خفيض :

— هس .. هس .. إياكى ان تفهم « كاتى »

تنبهت مها إلى وقفتها فاشاحت الأخرى بسرعة مبرقة بعينيها وانسحبت خارجة ومتخبطة اندفعت مها هى الأخرى خارجة من

امامه لا تدرى إلى اى الحجرات .. إلى ابنتيها .. إلى المطبخ .. إلى دورة المياه .. إلى اى مكان فقد كانت كلماته تتعقبها تطاردها بمعنى واحد .. معنى ظالم .. ظالم .

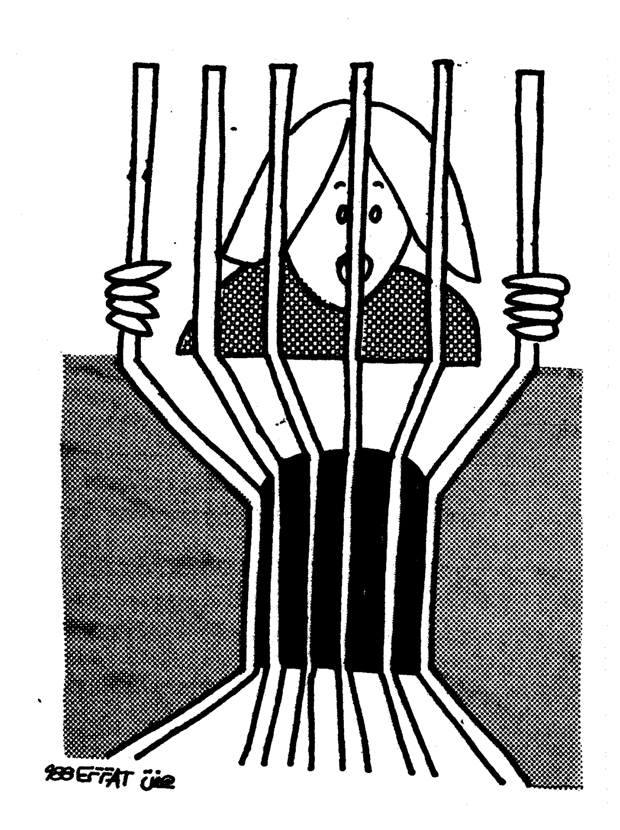
★ ★ ★

تدور « كاتى » على اعقابها قبل ان تنهى كلامها معها فتصنع من طرف ملابسها دائرة تؤكد بها بعد المسافة بينهما ! اما لخوه الأكبر فكان يترك لاتساع عينيه الموروث ان يركزهما على اى شىء إلا ان يراها كشرط اساسى فى ان يتبادل معها كلماته التى يخرجها بصعوبة اضطرارية .. اما إذا حضر عمرو الصغير من كليته سواء مبكرا عنها او بعد وصولها فكان يتكاتف كل من فى البيت لينادى عليه يستفسرونه عن اى شىء وعن كل شىء ليملأوا المساحة الزمنية التى يمكن أن تنفذ منها للحديث معه !

فيبدو دائما وابدا فى موقف المشغول إلى حد الدوار مجيبا على اسئلتهم او استفساراتهم إلى ان يصبح خالد بصوت يتاكد به تماما انه وصل بارتياح كامل إلى داخل اذنيها يامره ان يخلد إلى المذاكرة ويغلق باب حجرته عليه !!

حربا خفية ومدروسة اقسى ما يمكن ان يعطوه فيها تعاطفا مع ابنتيها تتشاغل « كاتى » معهما فى إصلاح الأذن الطبية لتتسع قلبيهما .. وقلب مها اختلت دقاته شىء ما يعتصرها فيدميها رغم ان السلوكيات والأفعال باحكام المعقول لاشىء فيها يمكن أن تضع يدها عليه إنما رياح الجفاء العاتية ومعنى الإهمال والنكران يفتتها ثم يسحقها وتتساءل « من انا بالنسبة لهم » تفكر بامها من يوم ان رحلت ومن يوم ان كان ولابد ان تعيش هنا فى دار ليست دارها وإحساسها بفقدها يزداد ينخر العظم منها بانها رحلت ..

★ ★ ★



مها جالسة بجوار الهاتف تتلقى لزوجها مواعيده الليلية ثم تتركها له مكتوبة . مكانها هو مكانها فى حجرة مزوية من الدار تصنع فيها لوحاتها ترسم الشجرة الخبيثة التى اجتثت من فوق الأرض والشجرة المحال التى فرعها فى السماء وكانت تصر على تجسيدها رغم استحالتها كأن الأمل رغبة موصولة داخلها مهما عصف اليأس بكل أمل لها فى الأمل نفسه . الهاتف عاود الدق . فنظرت إلى عقارب ساعتها اكثر من مرة فقد بدأت تشكو لنفسها من ضعف فى قوة الابصار وغالبا مالا تساعدها عينها على الرؤية بوضوح ضبابة بيضاء تهتز معها الصور والكلمات او تركبها على بعضها !! ولما تاكدت ان الساعة مشت كثيرا إلى قرب الفجر هاجس نبش قلبها وخوف استباحها حتى جف الحلق منها دقات نبضها متلاحقة وانفاسها متخبطة والمتحدث يخبرها بانتهاء ورحيل الشابه .. إذن لم يفلح معها مشرط خالد الساحر .. المستشفى يطلبه . واصوات ملتاعة تسمعها خلال الهاتف .. « ارجوكى الدكتور ؟ الدكتور من فضلك ؟ رجاء ان يتصل بنا الدكتور » ؟ اصواتهم غرقى والغصة واضحة يغالبونها وهم يرددون الدكتور ؟ الدكتور من فضلك !! فتردد مها لنفسها « آه ليت لرجائهم معنى » ، الهاتف يرجع اصواتهم المذعورة ولكنه رجع له معنى الصدى فقط . له مفهوم الترديد الذى لا يحمل معنى . الطبيب ما قيمته الآن حتى ولو كان يحمل فى مضمونه معنى السحر او التطبيب .. وتوقن ان هناك شيئا واحدا لم يمت حتى بموتها هو الأمل مهما تضاءل يريدون الطبيب !! فتتساءل « تراها تنبض ؟ اومازالت ؟ وإلا لماذا يصرخون يبذلون انفسهم بكل ما تحوى . يختصرون ويضغطون وجودهم بآمالها فى عبارة من فضلك الطبيب . رباه ان حقيقة القدر شديدة الضخامة فى حس البشرية ولكنهم لا يحسونه وهو سائر معهم إنما يشعرون به بكل الرهبة حين يكون معاكسا لهم » .

انتفضت موتورة من مكانها وبلا وعى كانت تفتح دفعة واحدة

حجرة « كاتي » هب الاثنان من مرقديهما وعرفا منها ما عرفت لحظة نسوا فيها كل شيء ولحظة وعي اخرى هبطت على مها بان خالد ليس الوحيد الذى يسلب الناس كل معنى لوجودهم .. فهناك آخرون تعيش بينهم يحملون من صفات الموت ما يجعل لهم نفس آثاره فإذا كان الموت يخيم بصمت ابدى وزمن لا محسوب على من نحب فهناك من تعاشرهم يجسدون هذا الإحساس بإصرار وداب لا نهائي ووجدت دموعها تسح .. تسح من عينيها بدفعات غزيرة بعدها بدأ إحساسها بمن حولها وبجلستها بينهما .

« كاتي » تتناول لفافة إنفرطت من علبتها وعود ثقاب مشتعل في يدها وقد تمدد احمد إلى الوراء واشاح بوجهه عنهما وبزفرة ضجر كانت « كاتي » تلملم سجائرها وهى تسالها :

— لماذا تبكين ؟

— لأنى شديدة الاكتئاب هذه اللحظة ..

فقالت وهى تعود بظهرها لتستند هى الأخرى :

— الأجدر بك أن لا تكتئبى ..

— كيف وخالـ

ولم تكمل إسمه رغم حاجتها الملحة ان تشكو لإنسان .. صوت « كاتي » اتى من قرارها متشبعا حتى الفيض ببرودة قاطعة وهى تقول لها :

— الأجدر بك ان تهتمي بابنتيك .. انا اتصور انهما تكفيك . إن فى هذا الكفاية إلى حين .

ابتلعت عبارتها لتفهم انها تقدم لها العوض بدلا من ان تحاول معها استرجاع خالد فهمت انه يجب ان تقتنع بابنتيها فقط .. القناعة والبديل وعليها ان تترك فكرة التعايش مع خالد تذهب أدراج الرياح بيقين أشد من تلك الرياح المكتومة التى تعوى داخل نفسها وبلا إرادة انفلتت منها هذه العبارة بضيق :

— لك واقعية مؤلمة وباردة كالموت .

فضحكت « كاتى »بقوة فجائية وهى ترد عليها :

— انتم الشرقيون وهذا الهلع لا ادرى له سببا فهذا الذى تتكلمين عنه كحدث ظالم او قاهر او حتى مباغت إنما هو الحقيقة الحقة فكما ان المولود يولد هو كذلك لابد ان يموت .

همست مها كانها تكلم نفسها وهى تغمغم :

— إنه الفراق إلى ان نلتقى ..

فتعجبت « كاتى » مرة اخرى ومتساءلة قالت :

— رغم انكم تؤمنون بفكرة البعث .. إلا ان روعكم وانفعالاتكم عالية جدا ومبالغة ! لماذا كل هذا ؟ إذا كنتم ستلتقون يوم البعث هذا أو القيامة او تفجير القنبلة الذرية .

فقالت لها بحسرة :

— لو كان عندك من اسفت لفراقهم لعرفت هذا الإحساس الموجع من قسوة الحب .

لا .. لا .. هذا ليس حبا على الإطلاق . هو إحساس ناتج من انكم شديدو الاعتماد على بعضكم البعض الزوج او الجدة او الأم او ايا من يكون يمثل سياج الأمان .. ورحيله بالطبع خسارة ضخمة .. إنكم لا تعرفون الاستقلالية .. فقالت مها من فورها :

— إننا معطاءون .. الأكبر منا يعطى خبرته لأقرب الناس إليه حتى يجنبهم الـ ..

فقاطعتها :

— لا .. لا .. هذا تخلفا .

— هل تسمين العواطف تخلف ؟ !

— بالتاكيد إذا تطرف فيها صاحبها تصبح نوعا من التخلف او ..

— أو مـــاذا ؟؟

— او تكون حالة من حالات تصلب الشرايين عند كبار السن بالذات .

— تشبهين العواطف بالأمراض الجسمانية او ..

— كما ان فيها انانية وعدم إنسانية من جانب من هم حول هذا الشخص !!!

— كلماتك غريبة الليلة !!

— لانه بعد رحيل الشخص الآلة والذى تعطون عقولكم اجازة على حساب عقله وخبرته ، بعد رحيله تكون النتيجة حالتين لا ثالث لهما اما أن يبدأ الصغير فى خوض الطريق المعاكس تماما ليتعلم بنفسه دون تلك الوصاية الحميمة السابقة واما أن يقضى باقى عمره يبكى أسفا على من رحل وفى هذه الحالة ..

ورفعت عينيها الزرقاوين مليا إلى سقف الحجرة فانتقل إلى مها الإحساس بالغموض وكان زرقة عينيها مبهمة بلا قرار ثم استطردت « كاتى » قائلة :

— وفى هذا خسارة تقدر من ٥ : ٧ سنوات إلى أن يتعلم بنفسه ويستطيع أن ..

— هل كل شىء لديك محسوب بالمليم هكذا .. ثم ..

— ولمـــاذا لا .. ؟

— ثم ان معلوماتك عنا مشوشة اين الدكتور عودة ليصححها لك و ..

— حتى هذا العودة الدكتور هو الآخر يمثل سياج الأمان بالنسبة لك فقالت مها من فورها :

— اكاد اسمعه فى اذنى يقول ان اغلب المعروف عن الشرق اساسه خليط من الفكر الهندوكى أو الفرعونى الأسطورى منه على وجه الخصوص .. لا .. هوية مقدمة منا للعالم عن انفسنا .. مذاقنا .. سمك .. لبن .. تمر هندى .. هل تفهمين هذا المثال انه محلى جدا .. ؟؟

فاشارت « كاتى » براسها دليل الفهم الأكيد .. بحكم زواجها من شقيق خالد من قرابة أربع سنوات كانت تدرس فيها العربية فى أحد المعاهد العلمية ثم استطردت مها بعد لحظة تفكير قائلة :-

— انا شخصيا لا اطيق العيش دون أن احس إننى محبوبة و ..

— هذا غير صحيح .. انت تقصدين دون ان تشعرى بانك تعتمدى على أخر والحقيقة ان هذا يحدث حتى دون وعى منك !

— ماذا تقصدين ؟

— نعم يحدث دون وعى منك ولهذا ودوما تتصرفين من منطلق العاطفة فقط لا عن علم او عن منطق .

— وهل الحياة تخلو من صراع دائم بين العاطفة والعقل ؟

بسرعة كانت « كاتى » تقول :

— خذى هذا المثال . انا اسمع من زوجى عبارة « انا احب هذا اللون او اكره هذا اللون ! هل العاطفة تصل إلى تفضيل او اختيار الألوان ؟؟

— طبعا هى اهم مجال لها .

— لا .. لا .. المفروض أن يسأل نفسه هل هذا اللون انا فى حاجة إليه أو لا ؟ هل يتماشى وباقى ألوان ملابسى ؟ بذلك يصبح الكلام منطقيا وفيه تأثير العقل والتفكير .. إنما الحب له موضوعات ومجالات أخرى .. ولن تستقيم الأمور بإلغاء العقل من اغلب الأمور فى حياتكم . فقالت لها مها من فورها :

— انت بلا قلب .

فردت عليها « كاتى » بثقة :

— وانت بلا عقل .

لم ترد مها إنما فكرت مليا .. كانت تبحث عن صفة تنطبق عليها وغائبة عنها واخيرا قالتها ..

— إنك .. إنك بلا روح كذلك ..

ورغم مفاجأة هذا الحوار الذى اجادته بعربية تقترب كثيرا من الاتقان وكادت به ان تأخذ مها بعيدا عن نفسها إلا أنه مع ذلك قد تسرب الضيق إلى روحها من لحظة أن حدقت فى عينيها ونقلت الأخرى إليها الإحساس بالإبهام المطلق لحظتها وعت مها ان

التواصل مقطوع بينهما كانها من* عالم آخر ولن تتفهم مشاعرها .. لن يكون .. فعاد دمها ينضخ إلى قلبها فى موجات عاتية ثم يخمد هناك فترى اطرافها وهى على جلستها محتضنة ركبتيها إلى صدرها .. ترى أطراف قدميها زرقاء ففككت ذراعيها من حولهما وحدقت بنظرة فى اظافر يدها كانت هى الأخرى زرقاء وفى جزء من الثانية كان اللون الوردى يعود ليصبغها ثم تندفع الموجات العاتية إلى القلب المهزوم لتركد دماؤها مرة اخرى ويعود اللون الأزرق جسورا إلى اطرافها . لحظة وتذكرت امها وهمست لنفسها « امى يا امى ما قولك الآن فى فكرة الإرادة والشخصية » وتقلبت « كاتى » فى جلستها فانسدل شعرها الحارق على ظهرها تمد يدها تسحب سيجارة اخرى حين قالت مها متنهدة :

— لا ادرى ماذا افعل فى غد على نفس هذه الوتيرة من العيش ؟

— مامعنى ما تسالين عنه سؤالك غير محدود ؟ !

— أقصد انه ليس لى صديقات أثرثر معهن .. احكى لهن ..

بحدة مباغتة رفعت كتفيها العاريتين من قميصها الأحمر وهى تقول بإصرار :

— قلت لك يكفيكى منى ورجاء حولك الآن ..

وعلا صوت شقيق خالد بضيق :

— اريد أن اكمل نومى .. هل لك « يا كاتى » أن تطفئى النور .. يمكنكما ان تكملا الحديث فى اى مكان قبل ان يطير باقى نومى ..

وفورا انسحبت مها فلم يكن امامها أن تفعل غير هذا واغلقت الباب خلفها بهدوء وتادب إحساسها ان المراة بجوار رجلها تبدو قوية كان حولها سياجا لا يمكن اختراقه ولو بالدقات المحسوبة او الهزيلة امراة لها رجل يعنى انها لا تكلم إنسانة بمفردها ولكن للآخر حسابات فى وقتها وفى عطائها وفى احتمالها .. هو نفسه لا يتركها تسمع او تتحمل ما لا يراه مناسبا لانه شديد الخوف عليها .. شديد الحب لنفسه . وفى حجرة ابنتيها والكبرى

تطوق رقبة الصغرى .. يدها تلتف باطمئنان حولها تمنت ان تندس بينهما وتفرد ذراعيها لتاخذ الكبرى عن يمينها والصغرى عن شمالها تمتزج بهما تشم رائحة انفاسهما .. بل الأفضل أن تاخذ الاثنتين على ذراع ممدودة وتحتضنهما بالأخرى تحشرهما لصيقتين ما امكنها إلى عمق صدرها لتشعر بالأمان .. ولكنها وبإعياء شديد كانت تطفىء النور وتنسحب من الحجرة ! أى رغبة لها أصبحت غير قادرة على تحقيقها حتى لو كانت تملكها .. وكأنها تحبط نفسها بنفسها .. لا طاقة لها على تحقيق اى رغبة مهما صغرت . إجهاد يشدها من أطرافها كأنها على وشك الهروب فى متاهات النوم المتعب .. وفجأة تنبهت على المفتاح يدور فى الباب وكانت وجها لوجه امامه قبل ان يسحب المفتاح ويغلق الباب وعلى صدره كانت تتلمسه يداها تحتضناه .. لم يزد على انه توقف مكانه رافعا رقبته إلى أعلى وذراعاه ثقيلتان يحرص أن يزرعهما بجواره فى استقامة خشبية وأخيرا قال وهو يبعدها بهدوء ممزوج ببعض الرقة من على صدره .

— ثوان فقط لانزل الحقيبة من يدى يامها ..

فانزاحت عنه وكلمة يامها تناوش اذنها بألم فقد عبرا زمنا طويلا لم يناداها باسمها ثم انحنى قليلا ليضع حقيبته على أقرب مائدة وبعدها غرقا لثوان فى صمت لم يقطعه خالد أو يحاول .. ومع ذلك قررت أن تستميت فى تلابيب اللحظة لا تدعها تمرق من بين يديها فى محاولة لتعود المياه الى سيرها القديم .. وقالت من فورها :

— حقا أنا أسفة لما حدث لمريضتك

— الله يرحمها

— لقد فعلت كل ما فى طاقتك ؟

— .. ..

— اما مسالة العمر فهى لله وحده .. إن ما فعلته أكثر مما يمكن أن يعطيه اى طبيب آخر فى اى مكان من هذه الدنيا ؟

— .. ..

— كذلك الطاقم فعل كل ما فى وسعه ؟

— .. ..

— كانت الدكتورة نعيمه تسهر بالتناوب ٢٤ ساعة حتى لا تتركوها ؟؟

لم يحاول خالد ان يرد باجابة على اى سؤال لها وإنما قطع استرسالها ليقول لها فجاة :

— لعلك تتعلمين معنى الوفاء ؟

اجفلت مبتعدة عنه الى الوراء بخطوات فقال مؤكدا :

— لو كنت مكانى لناديت المشرحة لتاخذها وانفاسها فيها او كنت اسكنت رصاصتين فى صدرها !! ؟

مازالت تتراجع بخطواتها الى الوراء ووجهها شاخص اليه .. حين ازاد :

— وكله بالقانون .. فالقانون قال لك بقتل ركس .. والله انا للآن فى عجب من امرك فاى قدر من الوفاء تعرفين ؟

كانت فى حاجة ان تتوارى حتى لا تراه ، حتى تسقط حاجزا بينها وبينه لاتريد ان تسمعه .. وهى تتراجع مازالت عبارته تطاردها « اى قدر من الوفاء تعرفينه » ، « اى قدر من الوفاء تعرفينه » الكلب .. القتل .. الخيانة ..

وهناك اغلقت حجرتها الصغيرة عليها عطشى لتتشمم رائحة المعاجين والالوان .. ندم ياكلها فاى وقت تعس كان حين ضاق صدرها بهذه الحجرة ؟ ورغم احساسها بصغر مساحتها تمنت ان تضيق اكثر ! لتقترب جدرانها من ظهرها .. من صدرها .. او راسها كانها تشاركها . منها بالتاكيد ستمتص الاحساس بنوع من الألفة والمعاشرة وتهاوت على الكرسى الوحيد الموجود هناك على يده بطاقة مكتوب عليها كل من طلبوه وظهر البطاقة يحمل دعوة لمعرض الكلية .. لوحتها قربت على الانتهاء تحتاج بعض الظلال الخفيفة


EFFAT
عفت 88

لتفرق بين الأخضر السامى وزرقة السماء تسمع فى اذنها صوت الدكتور عوده يقول :

— كثفى السحابات البيضاء .. ولن تحجب ذلك القدر الملموس خلفها من السماء ولكنها على العكس تعطى لمن يعى علامة ظاهرة على جوهر المعنى ..

وبهدوء شديد كان خالد ينقر باب حجرتها وفهمت .. يريد ما اعتاد عليه القصاصة تحمل اسماء من طلبوه ففتحت الباب مساحة ضيقة جدا ودفعت له بالورقة دون ان تراه .. لأول مرة لا تتلمس اى حدث مهما كان ساذجا لتتكلم معه او تحاول .. ووجدت نفسها تدير المفتاح دورتين متتاليتين بعدها عاودت جلوسها آمنة على الكرسى الوحيد ونامت وبداخلها قناعة تهدهدها بأن هذا المكان يعادل فراشا رحبا .. يتسع لآلام إنسانة كما اتسع لأفراحها يوما ما .. حين كانت لها أم ..

● ● ●



كـانت تريد ان ترد لشادى موقفا حين فضلها وهما يعلقان لوحـة التخرج فوضعت لوحتها فى مكان لا يمكن رؤيتها منه للوهلة الأولى بالنسبة للداخل إلى المعرض ولم تقبل أى محاولة بتغييرها من جانب شادى أو هالة أو سمير.

نبرات صوت الدكتور عودة تحدد وقفته فالتفتت مها لا إراديا وسواء رأته من جنب أو وجها لوجه فإن كل ما تلمحه منه ينقل إليها الإحساس بالأمان .

الكل مشغول تماما فاليوم هو يوم كل عارض فيهم ومها تنقل عينيها كبندول الساعة بين اللوحة ووجه أستاذها ولكنه ضحك ضحكته الجهورية وهو يقول :

— هذه مها .. رغبتك أصبحت واضحة ومفهومة .. هذه اللوحة تقول بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة و ..

أرضية اللوحة فى الجنب الأيسر منها ساق لشجرة عتيقة ضخمة .. الشجرة مورقة بغزارة محسوسة ورقاتها عبارة عن وجوه إنسانية فى عيونها سكينة ورضا وأفرع الورقات أذرع تتماسك ببعضها البعض فى قوة عضلية وصدق .. الشجرة تملأ الجزء الأكبر من اللوحة وفى الزاوية اليمنى مساحة من الأرض محفورة بشكل رأسى عميق وفى نهاية الحفرة ورقة واحدة ملقاة حوافها ذابلة ملقاة فى هذا العمق السحيق ..

اخرجها دكتور عودة من لجة قلقها وهو يقول :

— لا باس .. لا باس بالمحاولة ..

وانقضت ساعات المعرض كانت فى لحظات كثيرة ترقب الباب تبحث عن عمرو الصغير .. كان ينبغى أن يكون موجودا .. لكل زملائها اكثر من صديق يجرى هنا وهناك يشرح اللوحة يقدمها ويلتقط الصور التذكارية مع من اتى له وفى أحيان كثيرة وبطريقة ذكية يوجهون الزوار لتتكتل حول إحدى اللوحات .. هى حركات بسيطة ولكنها تدخل السرور إلى نفوس المشتركين فى المعرض ومها تقف وحدها بعد ان إنشغل العميد بالدوران حينا والوقوف احيانا اخرى عند باقى لوحات المشتركين . تقف مها وحدها إلا من شادى الذى يترك مكانه ليقف بجوارها بضع ثوان .. عينها لا تفارق باب القاعة .. « ينبغى أن يحضر عمرو .. ليته ياتى » ..

ولكنه لم يات ولن يات حقيقة بدات تتقبلها والأمل يمعن فى البعد عنها يتلاشى فى الغبار والزحام الحادث من آثار اقدام الزائرين لتوقن ان عمرو لن يات .

عن بعد كان إسماعيل يطيل التامل فى لوحتها ويهز راسه فترتد إلى اذنها عبارته الكريهة « لنقر بعلاقة مها وشادى كنتاج لما طرا على أسلوب الإنتاج او الإبداع ياعالم فضونا من هذه الحدوتة » فى عربة اجرة اوصلها بعض زملائها فى طريقهم .. كان ثلاثتهم جلوسا امام التليفزيون موعد النشرة الأخبارية الأخيرة بعينيها شاهدت الخبر الأخير مصورا من معرض كلية الفنون ومرت عين الكاميرا وتوقفت لثانية عند لوحتها طبول الفرح تدق عالية فى قلبها .. تقول « ها هو انا .. عملى » والكل شخوص إلى الشاشة همت أن تنطق « انا هوذا .. لوحتى .. عملى » .. حين هب واقفا اخو خالد واضعا يده على كتف « كاتى » ينسلان إلى حجرتهما .. أما عمرو فلم تفطن متى قام هو الآخر وبقيت وحدها تستمع بكل تاكيد للمذيع يعلن انتهاء النشرة الأخيرة لهذا اليوم ..

★ ★ ★

حوالى الخامسة والباب يدق وابنتها تحاول .. تطاول بيدها حتى فتحت مقبض الباب ودخلا بخطوة واحدة كانت بين شادى وهالة واهلا وسهلا وتلملم شعرها .. تسويه قبل أن تصل إليهما تصافحهما .. مد لها شادى يده بجريدة المساء تحمل نقدا لم تقراه باستيعاب مرت بعينها فوق الكلمات وتوقفت عند كلمة التشجيع فى آخر العمود .. الصفحة فى يدها تلف بها نصف دائرة ونصف دائرة اخرى وابنتاها تضحكان .. هل الفرح ينتقل بهذه التلقائية إليهما كانهما مازالتا مربوطتين بحبلهما السرى .

« اتفضلا » وجلسوا بود كبير .. الكراسى بعيدة عن بعضها تدور حول سجادة فاخرة اقتناها خالد من المزاد بعد خلع الملك فاروق .. وبعد ثوان كانت الكراسى تسحب ليجلسوا جميعا اقرب ما يكونون إلى بعضهم البعض .. لم تقم لتجهز الشاى سرقهم الوقت وهم يتكلمون عن امسهم وامس امسهم والغد « ومتى ترتبطان » ؟ وفجاة بادرها شادى :

— انت لم تقرئى بفهم ما كتب على لسان الدكتور عودة و ..

اجفلت لحظة فهل اتى اليوم الذى يتكلم فيه استاذها عنها .. وخطفت الجريدة من يد شادى ، وهما يتضاحكان وقرات رايه فى محاولتها لتجسيد بعض المعانى كان يقول « ليس كل من ألف موسيقى عن القدر أو عن نهاية الخليقة أو عن الخلود استتبع نصا .. حولنا الآيات تعلن عن نفسها واليقين نتلمسه دون الرجوع إلى اى نص يكفى أن نتامل انفسنا فلنا فى كل لحظة من الزمن آية على وجود معنى للحق .. والخير .. والعدل .. والجمال » و ..

دق قلبها .. ثم توالت دقاته عالية تكاد تخنقها .. ورفعت عينها متعبة ترى شادى « تتلمس ما فهمه وما فهمته من هذا الكلام إلا انه اشار بيديه الاثنتين وهو يقول :

— (لا تتسرعى اكملى يامها كلام الدكتور) ارخت عيناها بسرعة تلتهم الكلمات كان يقول : « لماذا ترفضون ما تقدمه مها ؟ لماذا

ترفضون محاولاتها ؟ لما لا تتركونها تبدأ نصية .. من حقها أن تبهر بهذا النص أو ذاك .. لماذا لا تتركونها تعبر عن ما تفهمه أو عن إحساسها به دعوها تنضج على مهل دون قهر فكرى أو ضغط لتصب فى قالب إنها تستقبل الحياة بالطريقة التى تصلها وتفهمها .. »

ابتلعت دقاتها العالية وهى تقرأ ختام كلماته « اليس الفنان مراحل وهذه مرحلتها .. فما هذه الكلمات المنزلة إلا دساتير عند التطبيق تستلزم رؤية وإعمال عقل وما عليها فى مرحلتها الأولى هذا إلا أن تأخذ ما تريد أو تحس بما تريده » ..

قالت :

— الدكتور عودة هو الإنسان المفقود .

ضحكت هالة وهى تقول :

— الإنسان المفقود .. كم أخشى أن نفقده ..

مرة الوقع عبارتها وهى تؤكد أن الدكتور عودة يعانى من شىء ما .. شىء لا يعرفون كنهه ، ولكنه يعيشه وباديا عليه لدرجة أن وزنه ينقص بشكل مخيف فاستحضرت مها صورته فى مخيلتها لتعاتب نفسها بهمس « رباه شغلت بنفسى إلى هذا الحد .. إلى الحد الذى استحوذ واستهلك كل مشاعرى ولم يعد يهمنى إلا أن أرى فى الدكتور عودة السند الذى لابد أن أحس به ليمنحنى الأمان كما قالتها كاتى » .. وهى على وقفتها معهم وفى هذه الدائرة من التفكير دار المفتاح فى الباب . كان خالد ممسكا بحقيبته التى وضعها على أقرب مائدة وبخطوتين اثنتين كان بينهم الابنتان تتعلقان به إلى مستوى ركبته وبادرها بحدة ضاحكا :

— ألا تقدمينني إلىّ ضيوفك .. ولو اننى استنتج ان هذا هو شادى ..

ولكم عرفت مها لحظتها كم يتقن الطبيب استقبال الناس وفى أى وقت .. ثم اتخذ له مكانا على طرف الكنبة التى تجلس عليها وفى مواجهتها كان شادى وهالة وظنت أول الأمر أن ترحيبه بهما صادق

كما بدا ولكن تتبعها لحديثه اكد لها انه يضمر هدفا ما يريد الوصول إليه .. فبعد أن صب فى اذن شادى كما لا يستهان به من الاطراء لشخصه المبدع وبعد وبالغرابة ما سمعت بعد ان اعتذر بصدق صادق عن عدم تمكنه من حضور افتتاح المعرض ليتعرف بنفسه ماذا قدم ويقدم شادى فنان المستقبل وكادت تصدقه .. ! .. بعدها بدأ يتكلم بأسلوب الخبير فى نظريات الفن .. والحق انه كان شديد الفهم لما يقول ، فى تلك اللحظات فاق خالد التكثيف السردى الذى كان يكلمهم به الدكتور عودة .. وكادت تصدقه !! فلقد زاد على حديثه حركات رشيقة جدا من يديه كامهر عازف على آلة تحتاج إلى مرونة عالية لتستمع وتستمتع بها ..

وعادت نظرته المعينة تطل من عينيه وقد افتقدتها مها زمنا .. تلك النظرة التى كانت تسال نفسها عنها وهل ياتى بها عفوا ام مقصودة لتحبه اكثر والتى كان يودعها بها قبل أن يرحل عنها فى فجرها القديم . الآن شعرت انه يمتلكها كاملة هذه اللحظة وصدقته !!! فلم تكن مع خالد حتى الذى عرفته قديما .. بل كساحر الآن او هو مايسترو يتكلم عن الفن ويؤصل علاقته بالطب بكل رشاقة يديه تلك فمنحها الإحساس بخفة حركة راقص باليه يملأ مسرحا فرعونيا قديما .. تنقل عينيها بينه وبين هالة وشادى فتراهما مسحورين به وقد نسيا على ثغريهما الابتسامة وعيونهما مشدوهة .. اما إبنتاها .. فإحداهما تجلس قرب قدميه والأخرى على ركبتيها امامه ويده مازالت تنتقى مواقعها المختارة وهو يربت بحنان موقع على شعرها اللين كانتا فى حالة استكانة كاملة .. وفجاة انتصب خالد ممشوقا وهو يقول : « ساتركها الآن لكم وهذه من اجمل الفرص بالنسبة لى » ثم استدار فورا منصرفا وكانت مها اشدهم يقظة فاسرعت الخطى وراءه حتى الباب وقد لاحظت انه لم ينظر إليها مطلقا إنما اوقفها مشيرا بكفيه فوعت للمرة الأولى انهما كبيران وهو يقول بتادب شديد :

— لا تزعجى نفسك .. لو اعرف لما حضرت هذه الساعة !!
فقالت متسائلة :
— لمـــاذا .. ان ..
وعادت يداه بكبرهما تتجسدان امام عينيها وهو يقول :
— ضيوفك يا سيدتى .. انا لن اخرج لكن سابدل ملابسى و ..
فى صوته اكثر من معنى .. ولكن هل فهمت أشياء ؟ أم انها لم تفهم شيئا ؟ وأخرجها صوت هالة وهو تقول لها :
— مها ان لك زوجا عالميا .
قبل ان تبتسم شاكرة لعبارتها كان شادى يقول :
— اى امراة لا تتمنى زوجا اروع من زوجك ما هذه الثقافة وما .. وما .. و .. ومها اطالت ارتكان عينيها على وجه (شادى) لتعى كم هو صغير ..
إحساس داهمها تجاهه . فعلا كم هو صغير السن والتجربة فالواقع انها كانت اكبرهم جميعا بما يزيد على السبع السنوات ولكن ما تجسد لها هذا الفارق إلا اليوم .. لا تدرى لماذا ؟ ومازالت عيناها ترتكزان على وجه شادى .. وجه شديد الدقة شعره مسترسل على كتفيه ولحيته هى الأخرى امتداد لشارب كثيف كل هذا يعطى لوجهه الإحساس بانك امام لوحة للسيد المسيح عليه السلام ..
هذا الجمال الشفيف لم تلحظه إلا الساعة وعرفت لماذا كان الدكتور عودة يحثهم على رسم وجهه ..
اما هالة فعلاوة على جمالها فهى تملك حيوية لا تجارى لها نظرات ترمى بها الكون من حولها بحدة طوال جلستها فى اى مكان ما راتها مها شاخصة كل هذه المدة إلا أمام خالد ومازالت مبهورة به ، انفاسها مخطوفة وهى تقول لها :
— هل سنرى زوجك مرة أخرى قبل أن يخرج ؟
ولم تكمل عبارتها .. كان عبق عطر ما يعلن عن مقدمة ولم يكن خالد يهتم بالعطور فى اى وقت كان يقول بانه يكرهها كلها من كثرة ما استنشق رائحة المخدر فى حجرة عملياته فسار محبا لرائحة

الطبيعة فقط حتى لو كانت ترابا فى يوم خماسينى .. وممشوقا اكثر مما تعودت كان يقترب فاتحا ذراعيه ليشد بهما على يد فنان المستقبل شادى وبنفس هذا التقدير كان يحتوى يد هالة وينحنى تحية لها وأمام مها ازدادت انحناءته وهو يؤكد بصوت مسموع انه تاركها لهم !!! بالتاكيد انه يتعمد الضغط على مخارج الفاظه .. وفى رجليه كانت منى ورجاء ..

★ ★ ★

اندست فى طرف فراش ابنتيها .. نومها عميق .. نومها لذيذ .. تفتحَ الصفحة التى قراتها من الجريدة وقد رفضت مسبقا ان تفكر أو تسترجع اى خاطر يقلقها فإذا كان لخالد كل هذا التقدير للفن الذى لمسته فى جلسته معهم فربما يحمل لها الغد قدرا من رضاه وقناعته لما نوت أن تسير فيه .. ونامت نوما عميقا .. نوما لذيذا .. ترى كم من عمر الزمن مر بها ؟

هل تصدق يدا دافئة تشدها .. اليد تزيحها .. هل توقظها ؟

ودفعة واحدة فتحت عينيها لتجده شاخصا إليها .. بقفزة واحدة كانت تقف تبحث عما تضع فيه قدميها فسحبها خالد من ذراعها .. يطوق باصابعه ذراعها .. الدفء الذى عرفته هو .. هو .. وواهب الدفء اكتفى أن يطوق اعلى ذراعها فقط يحكم دائرته عليها .. يوجهها إلى حجرته .. كان جسدها مازال بعضه نائما فكفاها مشقة التعثر وهو يضغط على اعلى ذراعها ووجدت نفسها فى هذه اللحظة تتذكر أمها وهى تسوقها طفلة نائمة إلى الحمام ثم تحلها من قبضة يدها وهى عائدة لانها كانت تملك الصحوة كاملة وعند باب حجرته كانت فى كامل وعيها ومازالت تستنبط ما تقوله لها دفء اصابعه ؟ ورغم أنها لم تستقبل اى معنى إلا انها لم تنس ان تحل شعرها من كومته فوق راسها فانسدل حانيا على ظهرها .. كانا قد وصلا إلى حجرته فانتزع يده من تحت ظلالها وهو يقول ضاغطا على كلماته :

— لمى هذا الشعر الطويل إنى إتعجب كيف تحتملينه ؟ !

عينها فى عينه فهرب بنظراته عنها وهى قصيرة فكان يملك دائما ان ينظر امامه باستقامة فلا يراها .. لا يراها وسأل :

— الم يطلبنى احد الليلة ؟

— كما ترى لقد نمت مبكرة ..

سقط بنظرته على وجهها وهو يقول :

— لقد قررت أن ادعوك بمناسبة انتهاء المعرض للعشاء فى نادى الأطباء ما رايك ؟ ولا تنسى أن تدعى صديقتك هالة ..

— ولماذا هالة ؟

— لانى سمعتك اكثر من مرة تقولين إنها كثيرا ما تساعدك فى اعمال تؤدينها عنك للدكتور عودة اليس كذلك ؟؟

★ ★ ★

بكل وضوح عاملها .. لم يكذب ولم يوارب .. بصراحة الطبيب كان يقول للمريض بأن عليه أن يستغنى عن جزء من جسده ! ولو كان قلبه ! ملاذها حجرتها المنسية كانت تسرع بخطاها إليها .. شوك .. شوك تستند بظهرها إلى الحائط القريب فتحس الشوك ساخنا ينغرس بيقين فيه .. الشوك يزحف حارقا إلى خصرها .. إلى بطنها يعشش بين صدرها ثم يتفجر فى معدتها .. وصرخت « آه يا معدتى كنت دوما ترفضين اجمل المذاقات فمالك تعبى حتى الفيض من هذا الوجع » عقلها كبندول الساعة لا يهدأ وبدا خالد كانه شعر الحرج امام تقصيره من عدم حضور المعرض فاراد دعوتهما ؟ ولكن لماذا يتعمد فى أول دعوة له أن لا يعطيها الفسحة كاملة ليقتلعا سويا نبتات الشوك من ارواحهما ؟

شاخصة مها إلى سقف الحجرة تراه مرة يقترب منها يطبق عليها ومرة اخرى يبتعد كانه اقتلع من مكانه فتحس البرد وتلمس العراء حتى ترتجف على جلستها .. ظل السقف يحاورها فإما لصيق كانه جدار لحد او بعيد فيلقيها لبرودة تقضم عظامها وترتج لها تكاد تسقط كطفلة منسية على دكة فى محطة قطار ما ثم تصحو تجتهد وتستجمع صحوتها هذه لتحدد بعد السقف الحقيقى الذى

لم يسعها مرة واحدة وهى فرحة ولا وهى حيرى ولكن غلبتها غفوتها التى بدات مع الفجر ولم تطل كثيرا إذ كان زوجها ينقر الباب بقوة فقامت واقفة تردد لا إراديا :

— نعم .. نعم ..

— لا تنسى موعدنا يا حبيبتى !!!

★ ★ ★

تحت الماء البارد تارة والساخن تارة أخرى كانت مها تسترد بعضا من عافيتها و « كاتى » إستيقظت لتوها لم تنتظر منها تحية الصباح ففى عينيها نظرة استنكار وهى تهم بالدخول والمكان ملىء ببخار لافح .. مطت شفتيها وتسمرت مكانها لبرهة ثم بضيق وبانجليزية كاملة كانت تقرر ان الأكسجين مفقود تماما والجو خانق غريب وبضيق اكبر وبخطوة واسعة كانت تمد يدها تفتح نافذة الحمام على اوسع ما يكون . فاحكمت مها غلق ملابسها والمنشفة مازالت فوق راسها . فى هذه المرة وصلها الإحساس كاملا هذا الإحساس الذى حاولت ان تنده عامْدة اكثر من مرة بانهم صاروا يكرهون أن تبادر باستخدام اى مكان فى المنزل وكان لهم الأولوية دائما .. احتلها هذا اليقين اكثر من مرة بطريقة أو بأخرى لا تستطيع ان تحددها بشكل ملموس او عند واقعه بعينها فكان ينقضى اليوم وهى تحبس ابنتيها فى حجرتها شديدة الضيق ولما كانتا تضجران كانت تضربهما ثم تعوى فى صمت باكية لنفسها فتتحلقان حولها تربتان على كل جزء من جسمها إلى ان ترتميا فوق بعضهما او تحت بعضهما فى نوم عميق وبعدها تحملهما إلى الفراش .. الحمرة هجرت وجهيهما حتى حلمهما بالسماعة القديمة والتذاكر التى بلا ثمن لم يبق لهما وجود فى يومهما .. هل يمكن إجهاض طفولتهما ؟ كان هذا الخاطر يهدها حتى العذاب وفى كل مرة تترك الحجرة لإنهاء اى عمل عند عودتها تفاجا بإحداهما تضع

اصبعها الصغيرة على فمها لتفهم الأخرى أو تحذرها :
— هس .. بس كلام كلام لا لا لا مافيش كلام .

★ ★ ★

كان عليها أن تنتهى من إفطارهما وتكوم لهما اللعب .. الفتاة التى تساعدها ستترك لها المفتاح مع البواب .. كاتى وزوجها ينويان السفر أياما إلى الاسكندرية .. وعمرو وجد لنفسه أصدقاء يستذكر معهم لا يحضر إلى البيت إلا فى وجود خالد .. وفى مكتب الدكتور عودة واجتها صورته الهزيلة .. بدت بذلته فضفاضة عليه وبدا قلقا يمسح جبهته بورقة من صندوق بجواره فسحبت هى الأخرى ورقة ثم خلع نظارته وأعادها مرات فقالت :
— هل يوجد شيء على زجاجها ؟
— لا لا يامها كيف حالك أنت ؟
— الحمد لله .
كم من الوقت مر بعد عبارتها هذه حين وجدته يكرر :
— الحمد لله عبارتك هذه جميلة .
— شكرا و ..
قاطعها بسرعة :
— المهم أن يكون إحساسك بها كاملا وإلا تكونى مرددة لها فقط
ولم يمهلها ردا إذ قال :
— كيف حال منى ورجاء ؟
فارتسم وجهاهما امامها والصور ناطقة تتوالى أمام عينيها فماذا تقول له ؟ هل تجرؤ أن تقول أن ابنتيها يعلمهما القدر الصمت الصمت .. من الأطفال ! ؟ بعد أن واد خالد ومن معه طفولتهما .. وإنهما تتعرفان طريقا وافدا للذبول والشجوب .. ماذا تقول عن يومها .. عن امسها .. وعن غد مبهم ينتظرها .. ولكنه أعاد سؤاله :
— كيف حال منى ورجاء ؟
— الحمد لله على كل شيء .

ودق الهاتف بجواره وهو يستدير ليتواصل مع الطالب كانت نظارته السميكة تسقط من على وجهه مصطدمة بزجاج المكتب .. انتفضت واقفة تلتقطها وتقدمها له وبقيت واقفة إلى ان اغلق الهاتف وقال :

— لن اضعها .. لابد أن أمر على المحل لتضييقها و ..

— الم تحاول زيارة طبيبك أو ..

قاطعها :

— لا عليك منى ربما عامل السن أو الإجهاد .

ثم اشار بيده إلى الهاتف بجواره وهو يقول بضيق وقد خفت صوته :

— أو لعلها [illegible] المكالمات الجوفاء ..

— ماذا تعنى .. أنا لم افهم ؟

— لا عليك يامها .. كيف حال الابنتين ؟ وهل يسوؤك أن أسألك سؤالا ؟

— تفضل بالطبع تفضل ..

— واله يامها ما أهمنى هذا السؤال قدر اليوم حتى أطمئن عليك ..

— ساكون سعيدة باى سؤال ..

وضع نظارته السميكة ثم قال بتأن :

— من الغريب حقا ان زوجك لم يحرص على حضور المعرض ولو لدقائق وأنت شريكة فيه .. و ..

وسكت ومازالت الدهشة ينطق بها وجهه فقالت :

— ومــاذا يا دكتــور ؟

قــال من فــوره :

— وكذلك عمرو الصغير كما تسميه رغم ..

— رغم مــاذا ؟

— رغم إنه كان موجودا فى نفس الموعد فى الكلية يشاهد تجربة مسرحية كما قال لى احد الزملاء ..

هل تصارحه ؟ هل تحكى له بأنهم يبتذلونها بمعاملة جديدة ؟

ومازالت شاخصة إليه تحاور عقلها مرة وقلبها مرة « أما يكفى الاجهاد البادى عليه » وفوق هذا مشاكلها فهى أثيرة لديه يقدر الجهد الذى بذلته لتلحق بركب التعليم متأخرة كل هذه السنين وفوق هذا شديد التقدير لظروفها الشخصية بل هو القائل لها دوما « اصنعى من كل تلك الإحباطات بل المصائب نصرا .. فلابد أن الله خلقنا لرسالة وهدف معين إلا الاستسلام والتلقى العاجز » ..

صوته يملأ تجاويف عقلها فاعتدلت فى جلستها وسحبت الكرسى مقتربة لتكون فى مواجهته تماما فقد قررت أن تبوح له بما فى قلبها ولكن وهى تستدير كانت الدموع مجنونة هوجاء فى اندفاعها من عيونها فابتلعتها وهى تضغط باسنانها على شدقيها وتنوى ان تتكلم حين تنتصر عليها دموعها بجلاء سافر لتملأ عيونها فتبتلعها وتزم شفتيها لتستجمع نفسها وتنطق فتخونها روحها لتعى كم تسلبها الدموع إرادتها الهزيلة لا تقوى على إخراج حرف واحد من فمها .. الكلمات مقتولة فى حلقها الضيق والأنفاس مخبوسة فى قصبتها الهوائية وعين الدكتور عودة خلع عنها النظارة السميكة كأنه يعطيها فسحة من الوقت لتحس بانه لا يراها حتى تلملم شتات نفسها .. ولكن هيهات فلم يتوفق نزف عينيها لحظة حتى لتنصرف فى كلمات لائقة على موعد من أمامه ..

وامتدت الدقائق بينهما بين أن تجلس على الكرسى ثم تقوم واقفة تضع حقيبتها على حافة مكتبه لتجلس مرة أخرى وتسحب الحقيبة تفتش فيها بصدق عن اى شىء كانت لا تريد شيئا معينا إنما فقط تتلمس لحظات تعالج بها ماهى فيه . اليأس المعنى الوحيد الذى تنبض به .. لا فائدة .. لا فائدة .. وبهدوء كان الدكتور عودة يقول :

— مها إياك أن تتصورى بأن الله خصك وحدك بما انت فيه فكلنا كلنا نعانى و ..

ودق الباب دقات قوية وهو ينفتح كانت الاقدام تتوالى بسرعة وهو يتناول يدها يشد عليها ويهب واقفا فى نفس الآن فوقفت بتلقائية هى الأخرى .. الحجرة واسعة تتوسطها مائدة خضراء وبينما ياخذون ما اختاروا لجلستهم ان تكون كان الدكتور عودة يهمس لها :

— مها دورك يتطلب جهادا .. جادا فى سبيل اشياء كثيرة ..

عيونها جفت حتى النضوب .. وهى تلتقط حقيبتها وتستدير لقد عرفتهم انهم من كانوا يزورونه من شهور وبصفة دائمة وكانوا يتسابقون لمعرفتهم وكانت هالة تقول بأن حلاقة رؤوسهم وشواربهم تؤكد بانهم عسكريون .. اسرعتْ بخطاها خارجة وصوته يمرق فى اذنيها يردد « اهلا وسهلا تحت امركم » ..

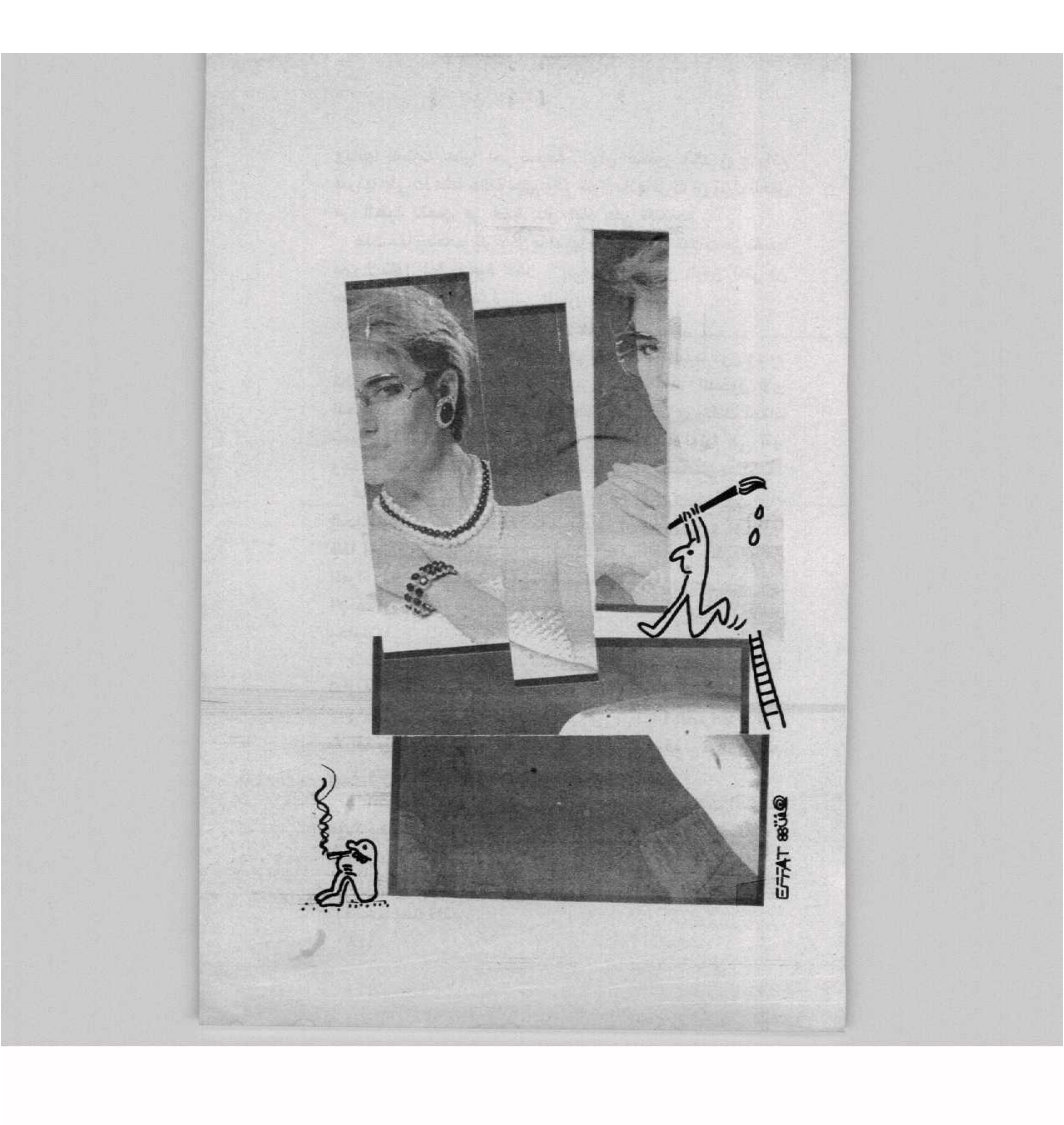
★ ★ ★

أول من قابلته كانت هالة باسمة كعادتها من عيونها تطل بقايا لذة تغمضهما وتفتحهما وهى تشد على يدها :

— زوجك رجل رائع .

مشيت بجوارها إلى أن وصلا إلى حجرتهما كان هناك العديد من الأوراق التى يجب أن تنتهى منها والكثير من الأخبار التى يجب أن تسمعها .. هالة تضفى بحيويتها الصاخبة الشىء الكثير على اكبر الأحداث سذاجة تضحك من قلبها من ابعد نقطة فى قلبها الطيب الذى يتسع لاحتواء نجاحات كثيرة للآخرين .. تروى ابسط الأشياء بصخب واندهاش طفل ينطق اول كلمة له فتشعر من يسمعها بأن ما تقوله له اهمية الأخبار التى تصنع للصفحات الأولى أو الاحصائيات التى تقدم لأكبر الهيئات العالمية ..

تحكى بأن زميلهم سيناقش رسالته غدا ولابد من وجودهم جميعا لأجل خاطره .. وان شادى يخطط للوحة جديدة ستكون مفاجاة ..


EFFAT 88

وبانها اشترت عطرا اخر صيحة .. وان الدكتور خالد زوج رائع قدرتها على الدهشة عالية حتى وهى تقول بانها قررت ان تترك العمل فى الكلية لتعمل فى فندق باق ايام على افتتاحه ..

ظلت مها تسمعها تفرغ كل ما لديها ورغبة اكيدة تمكنت من نفسها بان لا تقول لها بدعوة خالد .. إلى ان ضاع من الزمن اكثر من ساعتين وانسلت عائدة إلى المنزل ..

★ ★ ★

شعور بالارتياح يتمدد داخلها وهى تتجول فى البيت دون وجود كاتى وزوجها .. اعفاها سفرهما من التردد عند الدخول لأى الحجرات بل انها كانت تدخلها الواحدة بعد الأخرى وكانت أحيانا تصرخ باعلى صوتها وباى كلمات وهى مطمئنة تماما إلى انها وحدها فكانت ابنتاها ترددان ضراخها وهما تضحكان ..

عادت تسمع ضحكاتهما .. تضع الحمرة على وجهها فى مرآة الحمام وفى مرآة حجرة خالد كانت تزيلها لان وجهها يبدو مضطربا قلقا .. يبدو كلوحة تاخذ الوان البطانة الأولى الفجة .. حتى التزين للمراة تجيده بالتكرار واخيرا غسلت وجهها واستراحت إلى الإحساس بانها تبدو اكثر طبيعية كما انها تريد ان تظهر بحقيقتها ..

فلماذا الاصباغ ؟ لماذا الزيف ؟ لتدارى به ما بداخلها ؟ ولماذا تداريه ؟ حتى لا يكتشف خالد تعاستها أو حتى غيرتها ؟؟

واختارت الطبيعة .. تحدث نفسها فى مرآتها « الصراحة يامى بلا لف ولا دوران ليعرف خالد ما يضنينى .. ليعرف .. تراه سيهتم بى ؟ ولماذا لا ؟ هل نحن فى عصر المعجزات ؟ » ..

وانفجرت ضاحكة باعلى ما لديها من صوت لانها تذكرت الدكتور عودة وهو يقول لهم أكثر من مرة « ليس للمعجزات عصر بعينه ! المعجزات حولنا ولكنكم لا تبصرون » ..

قبل أن تسترسل فى معايشة كلمات أستاذها مرق عمرو من امامها وبغضب إستوقفته :

— يقال ان هناك فى كل اللغات بعض العبارات مثل مساء الخير ..

توقف مكانه دفعة واحدة ولم يتمالك نفسه انحنى يرفع ابنتها ويقبلها .. فقالت :

— تستطيع ان تستريح هذا المساء فانا خارجة للعشاء و ..

فقال من فوره :

— وهل ستحضر هالة ؟؟

فهمست لنفسها ، حتى انت ايها الصغير .. يبدو انها خطة كلكم مشاركون فيها وقالت بصوت مسموع وبرود كانها استعارته من كاتى :

— لا .. لقد اعتذرت .

بجواره داخل عربته .. رائحة جلد المقاعد وطريقة وضع اصابع خالد على عجلة القيادة اعادوها إلى ايام دارها القديمة .. هناك فى حى المعادى .. فى تلك الأيام التى كانت تتمنى فيها ان تكون حوائط بيتها من زجاج رغبة منها على العيش حتى آخر اللحظات مع خالد . وهو يتركها عند الفجر .. تظل تراه وتلاحقه حتى تخفيه منها عربته .. نفس هذه العربة وفى لحظات كثيرة قبل رحيله تجد نفسها بكامل إرادتها حافية بجواره فينزل وباناقة يحتويها قائلا « حبيبتى لسعة الفجر عليك قاسية واخشى على صدرك منها .. اصعدى إلى فراشك .. ليس اكثر من خمس ساعات واكون عندك » فتجرى طائعة تدخل فراشها تغطى راسها النائمة على الآلة الباردة ..

وعندما تدق يكون سكرتيره ينبئها بانه سافر إلى بلاده البعيدة لمؤتمره الفلانى ولـ .. ولـ .. واليوم تحت سقفه الواحدة تعيش ولا تراه يتعمد ان لا ينطق باسمها ..

امها كانت تقول صدقا حين كانت تقول « لرب زمن بكيت فيه فلما مضى بكيت عليه » تعيش معه الآن لتكتشف مغزى عبارته التى كان يرددها دوما « حتى لا يقال باننى اهملت فيهم بعد

أن تزوجت » لتعرف مها انه معها يدفع حسابات قديمة اكثرها حساسية أن والده احمد وعمرو وكانت زوجة ابيه دفعت حياتها ثمنا بسبب إهماله فيهم .. كان قادرا كطبيب ككل اطباء عالمنا المنسى ! ولكنه تركهم يعانون شظف العيش صغارا .. كان لاهيا عنهم ربما بأسفاره التى تتجدد كلما سافر كالخلايا التى يهتم بها ولا نهائية لتجددها .. ولم يتجسد له تقصيره الكبير إلا بعد أن سافرت هى ولأول مرة ولكن بلا عودة .. أوقف استرسالها بحدة وهو يقول :

— فى أى شىء سارحة ؟

— مجرد خواطر .

وفى نادى الأطباء سارت بهم الساعة إلى مابعد العاشرة حتى سألها :

—هل اقول بأن هالة لن تاتى أم ؟؟

فقالت بلا تفكير :

— هى فعلا لن تاتى فقد اعتذرت ..

تلقف منها الرد وقد أعطاها الإحساس متفجرا بانه سمع منها قيام الحرب العالمية الثالثة ! فقد قبض بيده على الكوب المثلج فبقيت شاخصة إلى الزجاج خائفة أن ينفرط بين أصابعه ..

— ولماذا لم تقولى لى من بدء الجلسة يا ..

— يا مــاذا ؟؟

ضغط على مخارج كلمته وهو يؤكد :

— يا خـائنة .

— أنا ولمــاذا ؟؟؟

— لان هذا كذب .. والكذب خيانة .. كان يجب ان تقولى لى من البدء الحقيقة ..

— وماذا جرى .. انت أردت أخيرا أن تسهر فلا داعى لوجود هالة ..

— إذن انت التى استبعدتها ؟؟

لم تفكر لحظة وإنما خرج كل الصدق وهى تقول :
— نعم .. ولتكن فرصة لنقترب من بعضنا و ..
فقال بغيظ :
— لن نقترب .. أنا لا أقترب من .
وتوقف ساكتا عن الكلام وهو يطيل التحديق فيها فقالت من فورها :
— من ماذا ؟ من ماذا ؟
— من خائنة .
— وما هى الخيانة التى ارتكبتها .. الكلب مرة أخرى ؟
— لا .. لا .. ولو أنى متأكد أنه ما كان يفعل معك ما فعل إلا لأنه قد اشتم خيانتك لى فى ولوعك التافه بالدراسة .. ثم سكت فجأة وضاع أى معنى من عينيه وهو يقول :
— والأسوا من هذا ..
— ماهو يا ترى ؟ .
— وجود هذا الشادى الذى يأتى من أجلك ..
— من أجلى أنا ؟؟ !!
— نعم فأنا لست أبله ..
— بل أنت البلاهة بعينها ..
— أنت وقحة ولم يسبق أن قالت لى أيا من تكون هذا اللفظ النابى .
— ولم يسبق أن قال لى أيا من يكون بأنى خائنة .
— لأنك تستحقينه .
— هذا خطيب هالة وسيتزوجان يا .. يا ذكى .
فأشار إلى مؤخرة رقبته وهو يقول :
— على أنا هذه الحدوتة .. على بابا .. على أنا .
— يبدو أنك جننت .

— ويبدو انك تماديت في الاستهتار بى .. راعى الفاظك يا .. يا ..
— ولهذا كنت عند لقائهما تمثل دور فارس الحلبة وزير النساء المعطر المحترف ..
قاطعها :
— انا قلتها صراحة بانى لو اعرف ان لك ضيفا ما حضرت .
— وهل تعتبر شادى ضيفا يمنعك دخول بيتك .
— هذا سلوك اى رجل مهذب .. انا لا اجبرك على شىء .. وفى نفس الوقت لا أريد تلطيخ سمعتى واسمى ..
— سمعتك وماذا فعلت فيها ..
— كل تصرفاتك الصبيانية .. شهوتك إلى معاشرة وسط الطلاب وانت فى مرتبة الأم منهم و .. سيطرتك على عمرو لينزلق إلى هذه المهاوى .. و ..
— اى مهاو يا حضرة الطبيب ! ؟
— حذرتك من الاتجاهات المتطرفة فى الفن واستقطابك للشباب و ..
— انا استقطب الشباب ؟؟ !!
سخريته اكلتها حتى العظم وهو يقول :
— واى شباب واى جمال .. إننى لست ابله .. الكلية كلها تتكلم عليكما .. جلد وجهها ينصهر تتعرى عظامه .. دخل هواء انفاسه الحارقة إلى تجاويف عينيها فاوجعها .. وجهها لا أبعاد له .. تتلوى تتكور تحت قدميه متمرغة فى دنس معانيه التى يرميها بها وفاجاها بأن القى بنقوده على المائدة وهو يقول :
— اتفضلى .. واجعلى الفضائح للمنزل او الكلية و ..
اى منزل ؟ واى كلية ؟ واى فضائح ؟
اى افكار يمتلىء بها راسه لا تدرى كانت يده تخنق اعلى ذراعها ليسوقها امامه بكل قوته سحبت ذراعها من قبضته كالملسوعة فابتعد عنها وهالها انه اعتدل فى وقفته وتحسس ربطة عنقه

وشد ابتسامة من بين شفتيه وبعينيه وفى نصف دائرة سريعة كان يتأكد من أن الجالسين لاهون عنهما .. التقطت مها نقطة ضعفه تلك ، مظهره وسمعته اللذين كان يتكلم عنهما من ثانية لم تفطن إلى تقديره إليهما إلا هذه اللحظة فصرخت عامدة :

— ارجوك لا تلمسنى .

وبحركة متعمدة اخرى كانت تدق بكعب حذائها العالى الأرض .. لا تدرى ما الذى كانت تريده بالتحديد لقد استنفد آخر صبرها واحتمالها والطريق مسدود امامها الجدران تنتصب بينهما من كل زاوية تؤكد استحالة التواصل مع خالد .. اعماقها تتمنى .. اصدق امنية لها .. ان يلتفت إليها اى من الحاضرين « ليتهم ينتبهون او يتدخلون » لا تدرى ما الذى كانت تريده بالتحديد من إعلانها الصارخ وبلا اى تفكير عما يدور بينها وبينه .. وخالد انتفض مضطربا ومبتعدا عنها .. مد يده فى سرعة يلتقط مفاتيح العربة فسمعت لها صليلا كانها فى يد سجان يغلق باب سجن على من سينفذ فيه حكم الإعدام مع أول خيوط الفجر التالى تركته يبتعد عنها ولما لم يستدر ينتظرها بدات تجرى وراءه ! بركان عات يحركها ، ماذا ينوى ؟ أن يعود بعربته ويتركها وحيدة مزوية حتى هنا فى هذا المكان .. حتى هنا وعلى الملأ ؟ بركانها العاتى رمى بها اسرع منه حتى باب عربته وراته يمط شفتيه قرفا منها فاعطاها بيسر شديد الإحساس بانها جرثومة معدية من تلك التى يبعث بها إلى المعامل العديدة .. ضربت بيدها زجاج العربة فصوب إليها عينيه ومازالت تلك النظرة الهلوع من كونها جرثومة معدية مرسومة بوضوح سافر على كل جزء من وجهه .. واخيرا انحنى قليلا وببطء شد لها قفل باب العربة الداخلى فاندفعت جالسة صارخة ..

— كل هذا لان هالة لم تات ..

استدار بهدوء شديد ناحيتها وهو يؤكد :

— نعم لأنى احب الصدق لا الخيانة ..

وأطلق لعربته العنان فلم تتمالك نفسها من أن تلقى بيدها بقوة على عجلة القيادة وإحساس كامل بانه محاها من ذاكرته وأيامه هو الإحساس الوحيد الذى يتلوى داخلها .. لا شيء يجدى معه ولم يهتم بها أحد فقط اليأس والخيبة وحقيقة الانفصال وواقعه هو الدم وهو النبض والأنفاس الواعية والباقية فيها فضغطت بكل ذراعها على عجلة القيادة وشهوة احتلتها ليكن الموت هو الحل لهما ، وهو يصرخ بها « مجنونة .. مجنونة .. لابد لك من مصحة » عبارته أوقفت اندفاعها لترد عليه :

— بصحة .. يا اخون من الخيانة نفسها .

وبإحساس غريزى .. إحساس الأنثى صرخت بآخر امل لها فى كلمة تسلخ جلده حتى يدمى مثلها وقالت :

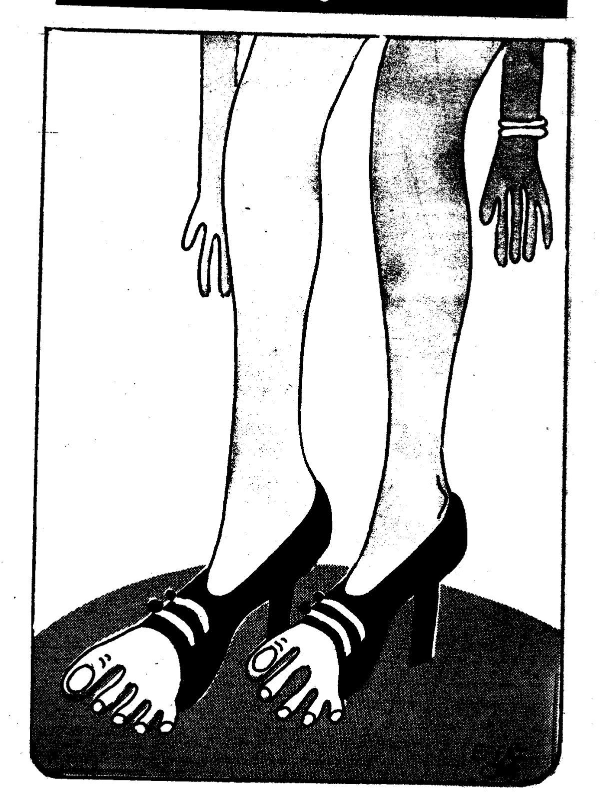
— طلقنى .. طلقنى .. طلقنى ..

وغلبها الصمت والشلل على ذراعها وهو يقول بهدوء ونبرات موزونة :

— لك ما تطلبين .. لك ما تطلبين ..

★ ★ ★

● الفصل السادس ●



الطريق إلى داره طويل .. شعرت بالظمأ ملحا .. داخلها مثخن والظمأ ملح حتى الجنون ، عرفت الجوع وما بعد الجوع لانها بقسوة تستهلك ما بقى من دمائها .. خلايا دمها تتآكل تتناقص فكانت تشعر برغبة قاسية فى النوم .. الدنيا تقف

على حافة إحدى اضلاعها وتضعف رقبتها عن التصديق وتضعف عن حمل راسها وتستلم فيقع راسها على إحدى كتفيها ومع ذلك كانت لها الإرادة فى ان تجعله يسقط ملتفتة إلى زجاج الباب الجانبى ، لا تريد أن ترى زوجها ..

والطريق يتناوب الوقوف على اضلاعه . والأنوار متشابكة فى إثر بعضها تجرى وبإصرار فتزداد إجهادا ويهرب منها إنسان عينها يختفى داخلها يحتمى بالعتمة .. ولما نزلت لم تقو رجلاها على حملها بهذا الحذاء العالى فواصلت السير على العتبات القليلة حافية وهناك وقفت تنتظر أن ياتى .. وطالت وقفتها أمام باب بيته .. طالت .. نفس الوقفة يوم فجر مضى وكلبه يمنعها من دخول بيت امها وانفجر داخلها بركان عاتى لان حممه ولهيبه كانت ترسل وترتد داخلها تنادى امها .. تسال امها عن وجودها وهى تصوب عصاتها فى منتصف ظهرها وتقول بصدق « لا تكونى ضعيفة » امها

اوحشتها حتى الوجع فتنددت عيناها .. وضاع العطش وارتوت العروق وهى تتذكر ذلك الحصن الذى كانت تعبر من خلاله مالا يعبر .

★ ★ ★

من قبل كان كلبه يمنعها من دخول بيتها يكرهها ويكره اشياءها يركلها بقدمه القوية واليوم صار زوجها يكن لها نفس الأحاسيس ! ..

هل هو تناسخ الأرواح ؟ هل كانا يتراسلان ؟

وما زالا على هذا التراسل للآن . كلها تساؤلات تختلط بذهنها المجهد تتذكر يوم ان قال لها وهى أميرته في بيت أمها « ان الكلاب لديها حاسة خفية ترفض بها اشياء او اناس و .. و .. » يومها لم تفهم شيئا محددا وفسرت كلماته بشذة عطفه على الحيوانات كلها تماما وكم كانت بلهاء فان كل ما يحدث لها اليوم كانت له إمارات ورموز كان ينبغى عليها ان تفهمها بل وتتوقف عندها تتفهمها .. وتركت الحذاء ينفلت من بين اصابعها ومن فوقه حقيبتها وسقطت جالسة على اول عتبة لم تكد تريح جسدها حتى داهمتها رغبة فى الارجاع .. الرغبة تكبر داخلها فتضع يدها على فمها وتهب واقفة تمشى خطوتين تتوارى فيهما عن مدخل البيت والرغبة فى الإرجاع مازالت تداهمها بلا توان فصرخت تنادى البواب واتكات بيدها اليمنى على جدار الباب الموصل إلى حجرته وبدات وبلا توقف كانها ترجع احشاءها إذا انفتح الباب الصغير وظهر رجل ضخم الجثة يزعق « الله حرم الدكتور خالد .. حرم الدكتور خالد » وامسكها من ذراعها كانت قد توقفت لحظتها عن الإرجاع وهمست بإصرار « اشرب .. اشرب ياعم سليمان » مازالت يده تقبض على ذراعها وهما فى مرورهما كانت حجرته الصغيرة مليئة عن آخرها برجال جلوس يحتسون الشاى فاندفع ياخذ مجموعة من المفاتيح كانت فى جيب جلباب معلق وسبقها بخطوتين وهى وراءه وانحاز يمينا وقد فتح لها بابا صغيرا واضاء النور فاندفعت داخله وعلى أول مقعد كانت تستريح :

— عن إذنك ياست هانم احضر لك كوب شاى .

— لا لا .. أريد ماء عطشانة جدا .

وتركها ليندفع مرة أخرى وقد أغلق الباب خلفه فمدت رجليها امامها وهى تعبث فى حقيبتها تبحث عن منديل ولما عاد لها بعض من هدوئها تلفتت حولها وهالها ان تلمح تمثالا لها بالحجم الطبيعى فقامت تدقق فيه كان فعلا يحمل وجهها نفس شعرها الغزير المسترسل وحول رقبة التمثال وشاح لها .. إنه وشاحها الأحمر لا تدرى متى فقدته .. وعلى مائدة صغيرة فى الركن الأيسر ملابس اخرى لها فقلبت فيها بيديها .. ما هذا الكم من المناديل التى تتزين بها وتلفها حول رقبتها او على خصرها كلها مكومة على المائدة ..

هناك نصف تمثال آخر تبدو فيه عارية .. العجب يتملكها فقد رات بعينى راسها لوحتها التى كانت على وشك الانتهاء .. لوحة الكلمة الطيبة والشجرة الخبيثة دوار خفيف انتابها وهى تجد سلسلة رقبة الكلب ركس بين كومة ملابسها واكثر من صورة له .. ولكن لا تفسير مقبول لما يوجد فى هذه الحجرة .. لا تفسير منطقى يقبله عقلها لكل ما ترى .. فلم يخبرها زوجها يوما بانه صنع لها هذه التماثيل ، وكيف حصل على ملابسها ؟ ..

ولماذا يخفى لوحتها هنا ؟

ومنذ متى يملك هذه الحجرة فلها أكثر من عام لم يحدث مرة واحدة أن قال لها او ذكر احدهم أمامها اى شىء عن هذه الحجرة !!!

وانفتح الباب فجاة فاحدث صوتا اقشعر له بدنها الضئيل .. كان البواب يحمل كوب شاى وزجاجة ماء :

— الشاى أولا ياست هانم .

— شكرا ياعم سليمان .

وتناولت الكوب منه وفى غمضة عين وقع منها على الأرض وانحنى البواب يجفف الشاى ووقعت مها فى حرج شديد وأرادت ان تقطع هذا الموقف فسالته :

— لمن هذه الحجرة ؟
— للدكتور خالد .
— ماذا يفعل فيها ؟
— الم يقل لك .
— لا لا .. لا اذكر .
فرفع وجهه عن بلاط الأرضية وركز نظره لبرهة فيها ثم انزل وجهه مرة أخرى وهو يعاود تنظيف بقع الشاى :
— كان الدكتور خالد يقتنى فيها كلبا عزيزا عليه وكان يخصص له مدربا من كلية البوليس يدربه ثلاث مرات فى الأسبوع . حتى صار يفهم كأنه مخلوق مثلنا ..

★ ★ ★

ثم اختفى من امامها ينوى ان يجهز لها كوب شاى آخر .. فقامت من جلستها ومازالت زجاجة الماء تقبض عليها بيديها الاثنتين تجوب أرجاء الحجرة وامارات الدهشة المشوبة بحب الاستطلاع تأكل فى صدرها ومع الاعياء وبقايا الدوار شعرت بحرارة الحجرة اكثر من حقيقتها وكان هذا الإحساس من رحمة القدر عليها فانشغلت به وتمركز تفكيرها وطاقة الحيرة داخلها فى الإحساس بالحرارة .. فلم تفطن ولم تفهم ان زوجها كان يدرب الكلب عن طريق رائحة ملابسها وتلك التماثيل المختلفة لها لمهاجمتها وقتما يشاء .. لم تتيقظ إلى سر كراهية ومهاجمة الكلب ركس لها المستمرة رغم انها كانت تطعمه وتسقيه فى احيان كثيرة .. ووضعت زجاجة الماء على فمها ولم تنزلها وإلا وقد فرغت منها تماما وتوجهت بخطى أكيدة إلى الباب إذ وجدت عم سليمان البواب فى يده كوب آخر من الشاى ومن خلفه كان زوجها لم تلحظ ان لونه ممتقع ولم تفكر كثيرا لماذا بدا يضحك ساخرا ثم يقطب حاجبيه وهو يقول لها مبررا :
— هذه حجرتى لم تعرفيها من قبل لم تدخليها ..
— ....

— بالطبع انا لا اعيش فيها ولكنى احتفظ فيها ببعض الأشياء .

— . . . .

— هل رايت التماثيل الموجودة لك ها ها ها إنها فعلا تشبهك .. لها نفس ابعادك ولكن ها .. ها .. ها ..

مازالت تمشى حافية إلى ان وصلت إلى اول عتبة لسلم العمارة وبدات تحس الهواء منعشا فتركت لجسدها ان يسقط فوق الحذاء الموضوع وفوق حقيبة يدها ..

— آسف لجلستك هكذا يا مها .. ولكنى تاخرت عليك لانى وصلت إلى الصيدلية .. ابتعت لك نوعا مهدئا لا اظن ان لدى منه و ..

— اى نوع تقصد ياخا .

ولم ترض أن تنطق باسمه او حتى لقبه وبمجرد دخولها كان يمد لها يده بعلبة وباليد الأخرى يناولها كوبا من الماء .. وفى لمح البصر كانت تصوب القرصين إلى حلقها وقبل أن تتخلص من ملابسها .. كانت الرغبة فى النوم عارمة لا تقاوم قد تملكتها تماما ونامت نامت لا تدرى إن كانت تحتضن ابنتيها ام انهما تحتضنانها بكل هذا الحب . الحب الذى لا يعرف الانواء او التبديل ولن يعرف ..

★ ★ ★

بين اليقظة والحلم كانت ترى خالد يقترب منها يضع يده على جبهتها وعلى خديها فكانت تحاول تحديد الرؤية بدقة ولكنها كانت تروح منه ومن نفسها إلى قرار عميق لنوم مجلوب بقوة غريبة .. تعاود فتح عينيها فترى خالد قريبا بوجهه منها انفاسها تلفح جلد وجهها وجبهتها .. يده مازالت تفتش عن شىء ما ..

هل يريد أن يعرف درجة سخونتها ؟ سيولة دمها ؟ نقر قلبها ؟

تعى اشياء هى كل الأشياء ولكن قواها هامدة .. والأثقال تشدها إلى النوم تعانى فيه من حمل جسدها الثقيل ، وفجاة سقط عليها وعى قوى بعدم وجود الابنتين من حولها .. لا تسمع لهما

أى صوت ! أى صوت ! فلم تنتظر فى أقل من اللمحة الخاطفة كانت تزيح الأغطية فاندفع الدم قويا إلى رأسها يساعدها على فتح جفنيها المغمضين دوما .. ثم انتصبت واقفة فلم تصل بطول وقفتها إلى صدر زوجها الذى قال بلهفة :

— ماذا جرى يا مها

— كل ما جرى اننى غير مطمئنة .. أين هما ؟؟

وهو يبالغ فى هدوئه كان يؤكد :

— تجدينهما فى آخر حجرة هناك .. هناك

— قالت صارخة :

— إذن هما فى المرسم تلهوان بلوحاتى و ..

بالغ فى هدوء نبرته وهو يقاطعها :

— وهل هذا يعقل يا مها .. انى حريص على لوحاتك و ..

قالت كارهة لكل ما ينطق به :

— حريص على لوحاتى ؟ ! يا للصدق القاتل !!!!!

فانتفض متراجعا إلى الوراء ومها تحس بالغرابة من إصراره على الرد بكل هذه المثابرة على كل تساؤل تنطق به وقال :

— الصدق القاتل .. اعوذ بالله .. انا اقتلك ؟؟

فقالت بضيق وإعياء واضحين :

— وهل قلت انا هذا المعنى !! ؟؟

★ ★ ★

وهناك كانتا تجلسان حول فتاة ترتدى البياض لم يطل تساؤلها إذا اخذت تشرح لها بان الدكتور استدعاها من مستشفاه لترعى الابنتين حتى تشفى هى تماما .

فتساءلت :

— وهل أنا مريضة ؟

— اعصابك يا حبيبتى

— يا حبيبتك !! ؟
ساقها امامه وسحب الباب بهدوء وعادت الابنتان تستمعان إلى ما كانت ترويه لهما الممرضة اكمل خالد خطوات بعدها وهو يقول :
— مها .. ارقدى فى فراشك وكونى مطمئنة و ..
وهى تلمس تغيرا فى سلوك خالد تجاهها من تلك الكلمات التى يلوكها بين شفتيه عن صحتها ! والعودة للحجرة ! واعصابها المتعبة ونغمة يا حبيبتى كلما وجه إليها اى عبارة ؟ وتلك اللمسات المتكررة التى يتعرف بها على حرارة جسدها ما كل هذا ؟ وهى التى لم يكن بعالمها غير الانتظار تواصله بالزفرات الطويلة والصبر يترنح منها ويتارجح بها وحقيقة حلوة بقيت لها دوما طالما كانت تعيش هناك ثم ضاعت هنا بضوضاء النفوس المتعبة ومضت بها الأيام تمسح ما كان لها هناك وما كان لها هنا .. ومع ذلك بعد ان راتهما بعين راسها . بعد ان اطمانت عليهما سحبها النعاس جسورا هو الآخر ولكن على غرة انتزعها صوته من عمق محيط الصمت الذى ينوى احتواءها وهو يصيح بقوة :
— سامية .. سامية .. اين الصندوق ؟
★ ★ ★
خطوات الفتاة تقترب فى الممشى تتوقف ثم تعاود سيرها فرفعت مها راسها لتراها كانت تحمل بين يديها صندوقا معدنيا كبيرا ولمحت وجه زوجها فى المرآة الموضوعة فى مواجهتها كان وجهه عابثا فترددت الفتاة لحظة وما زال الصندوق بين يديها مشدودا إلى صدرها وفجاة صرخ فيها :
— هناك .. هناك ضعيه يا غبية .. ثم اذهبى لا تنسى ان تغسلى يديك جيدا .. الفورمالين سام .
كلمته الأخيرة اوقفت مها فى وسط الحجرة . والإحساس بخوف من نوع غريب يمزقها لانه يساومها على امان منى ورجاء تفكر بان النتيجة الأكيدة انهما بعبثهما المستمر لابد انهما واصلتان إلى

الصندوق وعلى صوته توقفت مكانها وهو يقول بحدة :
— مها حبيبتى .. إياك والصندوق .. الفورمالين سام
— ماذا في داخله ؟؟؟
التمعت نظرة لأقل من ثانية فى عينه ثم قصد التحديق فى عينيها وشبه ابتسامة كظل سريع سقط على وجهه وهو يقول بتان :
— داخل هذا الصندوق راس كلب كنت أحبه و .. و .. و ..
ولم تسمع .. لم تسمع باقى ما يقول وصوتها يخرج عاليا من مقدمة راسها لم يكن من حلقها ولم يكن من صدرها كان الصوت من مخها وكان مخها ينتفض بقوة يجود بآخر ما لديه وتهاوت الكلمات :
— مجرم .. هذه جريمة ان مكان هذا الصندوق داخل عيادتك او المستشفى أو اى خرابة .. قلت لك طلقنى .. طلقنى ..
بصوته المعتاد الهادىء كانه يقيس كل حرف قبل ان ينطق به كان يرد عليها وشبه الابتسامة مازالت جسوره فى عينيه :
— سيكون لك ما تطلبين .. ولتعلمى اننى لست بحاجة إلى أن تطلبى اكثر من مرة واحدة حل ارتباطك بى .

★ ★ ★

بعدها كانت توغل على غير هدى فى قلب الظلام وبلا روية تعب الإحساس بالضياع .. اصوات تدق فى راسها لا تفهمها حفيف اشياء كثيرة تتكسر داخلها .. أصوات بشرية ممزوجة بأصوات جميع حيوانات الأرض غابة بطبولها تدق فى راسها نباح كلاب واستغاثات وصوت سقوط لأشياء داخلها تهزها .. لهجات تسمعها ولا تتبينها .. ترهلت الأرض فجاة تحت قدميها فعجزت عن ان تصل إلى فراشها كان آخر ما وعته انهم ولا تدرى من يوسدوها مكانا ما ..
كم من الزمن المنقضى بقيت نائمة ؟ لا لم تكن نائمة بالمعنى الذى تعرفه كانت مسطوحة ضاعت قدرتها على اى شىء لأنها لم تكن تريد شيئا . حواسها داهمها العجز تماما . الدفء والصقيع يتساويان ، إنما بقى عقلها إلى حد كبير يملك الوعى بخطوات هذا

الرجل من حولها بالته التى يضعها على كل جزء من جسدها يتسمعه وهى مستسلمة تماما ولم يكن استسلامها له عن ضعف بل كان الغالب عن خوف رعدة ما تنتابها .. خوف يلفها فى غيابهه السوداء بلون صندوقه الذى بداخله رأس كلب .. هناك حيث اختار أن يتركه على المائدة ليس بعيدا عن رقدتها فتغمض جفنيها بقوة وتدير راسها الناحية الأخرى والرعب يهزها حتى الارتجاج ولكنها لا تملك المقدرة على أن تطلب منه أن يخرج الصندوق بعيدا .. بعيدا ..

★ ★ ★

ترى خالد بين اليقظة والنوم وهو يبدل من ثيابه أو يحل ربطة عنقه .. وهو يتنقل فى الحجرة حافيا ينقر على الصندوق أحيانا أو يضع أوراقه عليه ثم يعود ليأخذها من فوقه فكانت تسمع لمسات أصابعه تعيد الرعدة والقشعريرة أمواجا إلى بدنها، فتدير راسها هربا ثم تعود لتفتح جفونها تدريجيا فكان أول ما يصدمها يكاد يبدد نور الرؤية منها كومة من السلاسل موضوعة فوق الصندوق والصلصلة لجان مارد ماذا ينوى أن يفعل .. ولماذا يستخدم صندوقه ؟ خوف ممزوج بقشعريرة فلماذا يستخدم الصندوق بشكل عادى ؟ وتمر بها الدقائق أو الساعات عسيرة الوقع ورغم هذا تجد عقلها يحلق هناك .. هناك وسط مرتع أيامها هناك تبدأ من أول الطريق بعد مصر عتيقة إلى المعادى والأشجار تبالغ فى احتفائها بها فتتزين باللون الأحمر والأصفر .. أشعة الشمس تتخلل رؤوس الشجر وهى ترفع رأسها ليستقبل جلد وجهها الدفء .. تجول بروحها هناك داخل البيت .. بيتها القديم .. رائحة أمها فى أنفها عصاتها وسط فقراتها تؤكد على الإرادة .. فتتسلل بروحها داخلة البيت .. تصعد الدرجات القليلة إلى حجرتها وتفتح بابها تقترب من فراشها آثار ثقلها يرسم شكل جسدها عليه .. بقى لها الأثر وذهبت هى ومع ذلك سمعت بوضوح رنين جوز الغوايش الفضة من حول معصمها المعروق .

كان فى هذه الصور خلاصها من ذلك العجز الذى يشدها مشلولة تستحضر الصور وتعب منها باحاسيسها الفياضة بها .. الممرضة تخف إليها على اطراف اصابعها تنوى ان تلقمها حباتها الكثيرة ، فتجاهد بصدق وتطلب منها ان تشد الصندوق بعيدا ..

— أرجوكى .. اخرجى هذا الصندوق من الحجرة أرجوكى ..

— اشربى حباتك اولا وانا اخرجه ..

فتتناول منها كل ما تريد وهى تبتلعها كانت قواها تخور بلا مهل فتتم ابتلاع ما بيدها وهى راقدة تماما تهوى إلى الغياهب السوداء التى يتكسر فى لجتها اى رغبة لديها لتبقى فقط تقاوم باستعادة عقلها لبعض الصور التى كانت لها هناك عند اول طريق المعادى . تحاول بكل ما بقى لها من تركيز ذهنى استحضار اللوحات الحية للطبيعة .. تتشمم الضباب .. تجول بروحها هناك حول البيت الحبيب ثم تنام .. تنام ..

★ ★ ★

لأول مرة تصحو فجأة ! .. شىء ما ايقظها ! .. دقة غريبة سحبت القلب منها ! ايقظت السمع فيها ! كانت الابنتان حول المائدة والصندوق اللعين على مكانه تحاولان الوصول إليه حتى الصلصلة عادت إلى اذنيها .

فى غمضة عين كانت تسترجع كل ما عرفته عن سم الفورمالين والصندوق الذى يحوى راس كلب ما ! ماذا تنويان ؟ ولم يطل تساؤلها الهلع عليهما اجلسها كاملة الصحوة تنادى عليهما .. كانتا مشغولتين بمحاولة .. ؟ لا تدرى ..

ولكن الأكيد انها تنادى فى فراغ على الممرضة .. صوتها لا يخرج من حلقها فهى لا تسمعه بأذنيها انهما تسحبان الكرسى ثم تطلعان عليه سويا .. رباه .. وهى تردد « لا .. لا إياكما » إذ وجدت نفسها بينهما تضرب الكبرى ، وتزيح الصغرى فبكيتا وبلا لحظة تردد كانت مها بذراعيها تحتضن الصندوق محاولة حمله فكان لها ما أرادت بل احست انه لم يكن ثقيلا إلى الحد الذى كانت

تحسبه استطاعت بشيء من الجهد أن تحمله وفوق هذا أن تخطو به خطوات تزيد على الأربع خطوات ، لابد أن يخرج هذا الصندوق من الحجرة إلى اى مكان ، وفجاة وجدت الممرضة امامها تصيح :

— تقفى دون إذن الدكتور .. وتحملي الصندوق .. !!!!

— لقد طلب منك اكثر من مرة أن ..

— ولكن الدكتور لم يامرنى أن أخرجه دون إذنه

— انت والدكتور ابتعدا عنى . كان يمكن أن تصل إليه الإبنتان . جدارا كان جاثما على روحها ! أثقل جدار .

لماذا لم تتخلص منه من قبل وما الذى كان يملؤها حتى الشلل ولماذا ؟

وشعرت الهواء فى صدرها إلى الأعمق .. عاد إليها امنها المفقود .. ما كل هذا الذى مر بها ! .. وكم كان التخلص مما يضايقها يسيرا وتسمع كلمات أمها ، ما دمت تملكين عقلا .. ذلك التكوين المبهر الذى لو احسن استخدامه ، كم كان التخلص مما يعذبها سهلا .

من خلف حائط شقة الجيران سمعت دقات الساعة .. ستاتى الفتاة وقررت ان لا تاخذ شيئا إلا جرعاتها الخاصة والتى تعشقها ففيها شفاؤها لان لإرادتها الدخل فى انتقائها تشعر بأن الطبيعة دوما اكثر رحمة ألم تبك من اجلها ؟ ألم يهبط الضباب عامدا يمسح قلقها وهى تنتظره يوما ؟

حتى القمر من عليائه كثيرا ما ابتسم لها وكثيرا ما وعدها وهو يسدل أهدابه فتفهم أشياء وأشياء ..

وانتفضت تسد عينيها بجفنيها للحظة وهى تتساءل ، هل هذا وجهى الذى أراه فى المرآة ، ؟ وكانت تقرر أنها هى بعينها التى إنطبعت صورتها أمامها بصدق احزانها كلها .

كل هذا الشحوب لا يهم ولكن نظرتها غريبة عنها .. نظرة دخيلة كانها ليست هى ! فقامت مقتربة اكثر من مرآتها وبوجل كانت تتحسس عينيها . هل أصبحت عيونها زجاجية تحمل كل هذا الجمود الذى انطبع مواتا أكيدا فى نظرتها ؟

ملمس عينها لين واهدابها تناوش اصبعها فلماذا ليست هى التى تعرفها ؟ استجارت بعقلها « عقلى اين‌اك إشرح لى ماذا دهانى .. أين أنا ؟

وهل ساعود يوما ؟ هل يعود الموتى ؟ قد تكون المعجزة التى ولى زمانها ! » ؟

وخشيت مها أن تبكى او تحاول فلقد كانت على يقين من أن العيون الزجاجية لا تدمع .. صوت ابنتيها ياتيها من بعيد ..

أسرعت إليهما وهى تقاوم دوارا خفيفا وللوهلة الأولى تسمرتا مكانهما فجلست مها على ركبتيها وهى تحتضن الصغرى التى استكانت فى صدرها أما الكبرى فقد وقفت بعيدا عنها بنوع من الإصرار .. تناديها ولما اقتربت منها مترددة أحست انها فقدت من وزنها الكثير ووقفت قبالتها كانت مها مازالت جاثية على وضعها تحتضن الصغرى ففتحت ذراعيها لتسكنها بجوار أختها وهى تضمهما كان تنميلا خفيفا يسرى فيهما من صخب الفرحة وهما إلى صدرها برهة وانفلتت الصغرى مبتعدة عنها برأسها وان بقيت مها تشدها من حول خصرها إليها ومدت الصغيرة اصبعها اكثر مرة تحاول أن تضعه على عينها وكأنها تؤكد غرابة عينيها . وصرخة فرح شقت قدسية اللحظة وهو يقول :

— طنط .. حمدا لله على سلامتك .

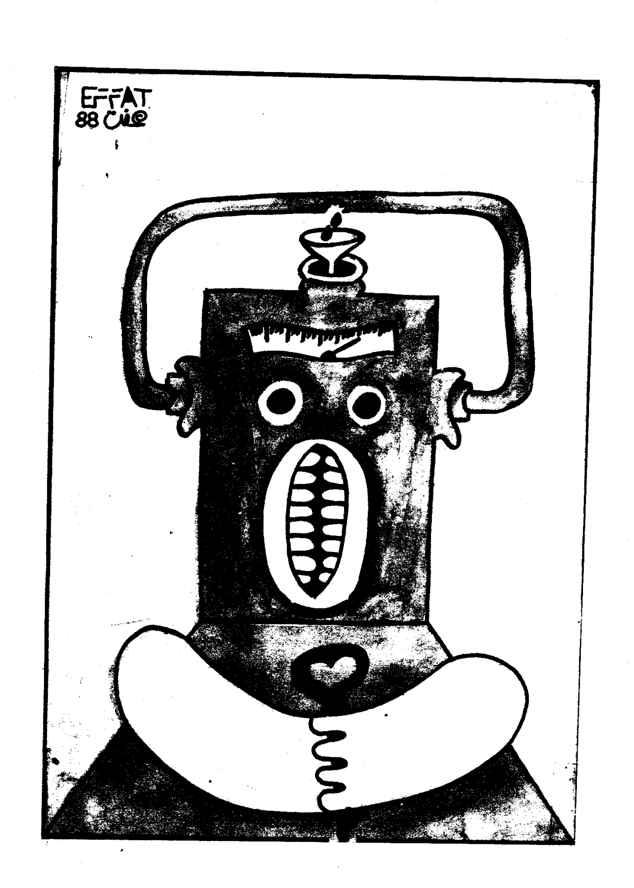
كان عمرو الصغير يحتضنها وهو يجلس بجوارها على الأرض فبادرته :

— يا عمرو الصغير أين أنت ؟

— بل أين أنت يا طنط ؟

وألف الف سؤال يسبق بعضه بعضا على لسانه وعودى إلى الكلية الكل يسأل عنك .. قلت لهم « إنك مسافرة فى مؤتمر مع أخى خالد » ..

ودوت كلمة مسافرة فى رأسها لتسأل « إذن كم من الوقت مضى


EFFAT
88 عفت

على راقدة ؟ لا أظنهم أحن من يومين ثلاثة ، ولكنها تخطت هذا السؤال لتقول له :

— أين كاتى واحمد ؟

— هل تعلمين إنهما إستقلا باخرة لزيارة موانى البحر الأبيض فى رحلة ..

— عمرو ماهى أخبارك .. الم يسال على الدكتور عودة ؟

من فوره قال :

— دكتور عودة ! ألم تقرئى الجرائد ؟ أخذوه ..

— إلى اين ؟

— ألم يقل لك أخى ؟

— لا بالمرة .

ثم وقف مادا إليها يديه وجذبها دفعة واحدة فقامت واقفة .. وهو يقول :

— كم وزنك خفيفا يا طنط !!!!

سحبها من يدها فجرت معه فرحة خطوتين كطفلة تماما سعيدة بتعلمها إتقان المشى .. وتعلق طرف قميصها بمقبض باب الحجرة مرسمها الصغير .. وهى تحاول تخليص ملابسها ملمس المقبض دفع بالحنين تيارات عاتية إلى قلبها المجهد .. تيارات لها رائحة الحلم والأمل فتوقفت لا تريد ترك مقبض الباب .. أوحشتها اللوحات ..

وتتذكر فى سرعة انها كانت قد انتهت من لوحة الشجرة الخبيثة ولم تستردها من الكلية ومحاولتها رسم مشهد خروج آدم طريدا من جنته فلقد كان إحساسها بطرده انه لانهائى « فكلنا طرداء انفسنا أو بعضنا البعض » ..

وبضغطة واحدة كان الباب يفتح ومن ورائها عمرو .. كل شىء على حاله كل مافى الدنيا يبقى موجودا حتى رائحة الأنفاس ..

بل ان أى شىء له عمر لانهائى وبصدق تتساءل « هل عادت إلى الحياة ؟ ام أنى التى عدت إليها ؟ »

واقتربت تتحسس القماش المشدود على الخشب واحدة بعد الأخرى فلم تجد ضالتها ؟ !

والحامل عليه لوحة فارغة ! كانت تبحث عن محاولتها السابقة وكان الدكتور عودة قد نبهها أن ترسم أدم دون ذلك التجويف الذى يمثل مكان الحبل السرى وهو يتوسط بطنه لانه لم يخرج من أحشاء امراة .. هو اول الخلق وتوقفت عن البحث وهى تسأل عمرو :

— اين اللوحة .. كانت قد قربت على الانتهاء و ..

رايتها فعلا

ثم اقترب من الحامل وهو يقول بتردد :

— الا تذكرى يا طنط ؟

— أتذكر ماذا ؟

— الا تتذكرى انك محوتها بفرشاتك .. دققى النظر لتتبينى الآثار إنها موجودة ولكنك بفرشاة محوتها على ما يبدو ..

تمطر .. تمطر الدنيا عويلا باكيا .. كلها يصرخ بلا صوت وهى تعى بعين رأسها لوحتها الملغاة !! العرق دماء تسابق طول شعرها فى سيلانه على ظهرها إلى خصرها .

عروقها تضخ ماء ساخنا تحس بلسعته مثخنا داخل جلدها .. :

— عمرو لا يمكن أن أفعل هذا .. عمرو هل تصدق اننى أمسخ ذاتى .. الغى نفسى .. عمرو اتصدق ؟

وتوسطهما خالد فجاة وهو يقول هاتفا :

— حمدا لله على سلامتك يا حبيبتى

واجهته وهى تقول :

— من هو الذى شوه لوحتى ولغانى من .. من .. من .. ؟

فى لحظة كان خالد ينقل بصره بسرعة بين عمرو واللوحة الفارغة فقالت :

— منْ هو الذى اعتدى علىَّ بهذه الوحشية ؟

فلم يزد على انه نقل عينيه بينها وبين عمرو وحاول أن يمد يده يربت بها على كتفها فازاحته بغضب ومع ذلك تمسك بالجزء الذى استطاع أن يتلمسه منها وهو يقول :

— اخاف عليك من الالتهاب الرئوى .. يجب أن تعودى إلى فراشك و ..

— ياعالم حرام عليكم .. حرام عليك ياخالد .. حرام

وهو يتراجع خطوتين عنها كان يقول :

— كأن أنا الذى محوتها أو مسحتها !!

— والله حرام عليك كيف تكون بهذه القسوة وعدم المراعاة لشعورى كيف .

ظل الدكتور خالد مركزا عينيه فى عينيها إلى أن تأكد انها ناسية تماما رؤيتها للوحة فى الحجرة الكائنة بجوار حجرة البواب .. تيقن من ان هذه الواقعة قد طارت تماما من ذاكرتها ربما بفعل توالى الأحداث يومها وقسوة الانفعالات او بفعل عقاقيره الكثيرة المهم انه استراح إلى هذه النتيجة فتقدم خطوة يضع يده على فمها وهو يقول بثقة كبيرة :

— عودى بإرادتك إلى فراشك وإلا فسالجأ إلى الحقنة التى تاخذينها كل ليلة .

— اى حقنة يا ..

— هذا ما يحدث فانت تنتابك حالات .. لك ازدواج شخصية غريب .. عودى إلى فراشك ..

— رباه لماذا خلقت .. لماذا انا هنا معكم .. لماذا اختفت أمى .. من انتم ؟

ساقتل من شوه لوحتى .. سانتقم .. سانتقم ..

كان عمرو يسوقها من امام اخيه وعلى فراشها كان يجلس قبالتها :

— يا طنط لا تجهدى نفسك .. هذا أول يوم لك من اكثر من ثلاثة اسابيع راقدة ..

— اكثر من ثلاثة اسابيع ! هل صحيح ما تقول يا عمرو ؟
تدخل خالد بثقة زائدة :
— اعطيها جريدة لتتاكد مما نقول .. وما خفى كان اعظم
— ماذا تخبئون عنى ! ؟
وضعت يدها على صدر عمرو وتمسكت بقميصه ولحمه لأول مرة منذ جاءت هذا المكان تحس بعبء الضياع . كل ما مر بها هنا كان يمكن ان يكون له اى معنى إلا معنى الفشل وإلا ماذا بقى لها ؟
فهل كانت موجودة بلا معنى ولا هدف ان كل ما بينها وبين خالد زوجها مهما كان اتهامه لها إنما كان يعنى الصراع .
الصراع مع إنسان وفى هذا وجود لها مهما كان هذا الوجود مكروها . قطع عمرو استرسالها وهو يقول :
— يا طنط .. لم نخبىء عليك شيئا إنما ..
تدخل الدكتور خالد بصوت واثق :
— إنما انت عنيدة والأحسن صارحتك
النبض يهزها يكاد يخلعها من نفسها .. غرست اصبعها بقوة فى الفراش تحت الغطاء لعلها توقف الاهتزازة التى تفضح ضعفها ليبدو اضطرابها عاريا حتى من ابسط غلالة يتستر خلفها وانتزعت العبارة انتزاعا :
— صارحنى يا دكتور ماذا ! ؟؟؟
وهو يخلع ربطة عنقه ويضغط على مخارج الفاظه قائلا :
— لقد اصبت بانهيار عصبى شديد .. و .. وكنت بنفسك تمحين لوحتك وتكسرين اكثر من كادر مشدود بل وكنت اخلص الأشياء من يديك بصعوبة واحملك عنوة إلى فراشك .. ولا .. ولا ..
— ولا ماذا ايضا ؟
— ولا تتوقفين إلا بالحقنة اليومية و ..
وهو يتكلم كانت الصور تتوالى فى مخيلتها المجهدة سائل شفاف

يتقطر يلطخ ذاكرتها .. يمطر داخل دهاليز عقلها فيهتز مخها مع وقع قطرات السائل ولا تتبين الصور وتخاف أن تدير رأسها بعيدا ، وتسمعه قريبا من أذنها يقول لها بتأكيد هائل :

— انه لا ينزف الآن فلا تخافى و ..

وهو مازال يكلمها كان الشريط يدور فى مخيلتها لتتذكر أشياء .. خالد قريب بوجهه .. قبلاته محمومة .. دموعه تختلط بدموعها يهمس لها :

« أحبك .. أحبك لو تعلمى كم أحبك » ..

ويتوقف الشريط وتحترق الصور والذاكرة تصبح عندها بيضاء إلا من تقاطيع وجه خالد القريبة منها وأنفاسه كأنها مضخة مشتعلة .. وداهمتها إغفاءة خاطفة سلبت منها الوعى رغما عنها ولكن بقيت هناك أشياء رغم الوهن تلح عليها والرغبة عارمة لديها تحاول أن تتحقق منها كأنها رغبة أخيرة لها فرغم النوم الذى يقتحمها ليسرق منها المحاولة محاولة التذكر وهى تروح عادت تبذل جهدا آخرا فتنتزع الصور وتتمسك بتلابيبها .. بمعانيها التى فيها خلاصها طريق المعادى .. الطريق إلى دارها الأخضر عن يمينها .. الأشجار تبالغ فى احتفائها بها ولكن كان بين كل شجرة وأخرى وجه خالد يبرز ليزداد وضوحا يقترب منها .. يداه فارغتان .. نصفه الأعلى عار .. يقترب منها يحتضنها .. يطبق عليها وصوته تستطيع أن تميزه يهمس لها برفق « مها كونى لى فقط لا أريد أن يأخذك أحدا منى .. مها كونى لى فقط » وحين فتحت عينيها لم تر حولها إلا الظلمة .. مفتاح النور بين أصابعها بارد وأضاءت الحجرة وتملكها الفزع فلقد كانت تنتصب بطولها الشديد عن يمينها :

— من أنت ؟

— هل نسيتنى يا سيدتى .. لقد أحضرنى الدكتور .. لـ ..

— لا أذكر اسمك ؟

— سامية
— كم يوما لى راقدة ؟
— اكثر من ثلاثة أسابيع
— ولماذا تقفين فى الظلام ؟
— كنت أنوى إيقاظك للمهدىء
— ومتى آخذ الحقنة ؟
— من قال لك بأنك تأخذى حقن .. يكفى المهدئات تماما
— والحقنة الليلية ؟؟
— لم يأمرنى الدكتور بها .. .
قالت بدهشة :
— كيف .. إن الم الوخز فى ذراعى !
اقتربت جالسة على حافة فراشها ومازالت مها تشعر بطولها الشديد ..
— لك ان تتحققى من ذلك بنفسك فلا اثر فى ذراعيك أو أى مكان آخر لحقن .. البادى انك شديدة الحساسية أو أن الدكتور يدللك كثيرا يا سيدتى قاطعتها :
— أين ابنتاى ؟
وقامت توصد الباب خلفها ثم تقف أمام المرآة تفتش فى كل قطعة من جسدها عن ضالتها .. عن أثر لما قاله خالد فلم تعثر على شىء وحرصت على أن تتحاشى النظر لعينيها لانها تخاف عين نفسها .. وجه خالد انطبع فى المرآة .. صوته متحشرج .. انفاسه قريبة هامسا « كونى لى . وحدى .. اما يكفيكى حياتى المليئة بالنهار والليل .. ما سبب جموحك بكل هذه اللهفة خارج دائرة حياتنا .. مها اعلم انك شعلة وطاقة من الحيوية والعطاء ولكن » ..
وتذكرت بهدوء تذكرت هذا الزمن الطويل الذى لم يتبادلا فيه كلمة . لقد كان يملكها ويلتقى بها وهى بين سكرات الوعى واللا وعى

ولم تكن تملك الرد عليه !!

لقد تصور انها ستنسى ما هذى به وتتساءل لماذا كان إلى هذا الحد يالم من حلمها وعملها وهل كان الوضع والراى يختلف عنده إذا كانت امها مازالت حية لها وجود .. ايامها لم يعترض وهى تلحق بركب التعليم الذى مضى من امامها يوما وتحاول التمسك به ..

واليوم ما الذى اختلف واى دائرة يخشى أن تخرج منها وهى معه ودق راسها حوار مضى يوما بينها وبينه وهى تقول له :

— كل زوجات زملائك يعملن ..

فقال بضيق :

— يعملن الأعمال الروتينية .. اما فكرة الابتكار او الخلق كما علمك إياها الدكتور عودة فهن لم يعرفنها او يتعاملن معها حتى من تعمل فيهن بالتدريس فى الجامعة و ..

— وما الفرق ؟

— الفرق ان الفن مارد جبار يستولى على صاحبه فى كلتا الحالتين فالنجاح يعنى أن يسكن اعلى من القمر والفشل يعنى ان يلقى به إلى عالم الجنون ، كما أن الفن يستهلك صاحبه تماما ولا يبقى منه إلا الفتات لمن يعيشون معه .

— ولكنى اعيش بكلياتى معك !

— لا .. لا .. فكلما اقتربت منك شعرت كم انت بعيدة انت تفكرين بعملك .. لا ترى إلا لوحاتك ولا تسمعى فى أذنك إلا كلام الدكتور عودة واطراء شادى .

— شادى لم يكن فى يوم من الأيام متحمسا لما اقدم هو فقط زميل يحسن معاملتى .

من فوره رد عليها :

— على انا .. على بابا

يومها قالت له وهى التى تعودت الصمت الطويل حتى صار هو الأصل فيها وهى كلها تكمل هذا الصمت لانها كانت تخاف أن تفقد

خالد .. إلا أن يومها صرخت فيه :

— ظالم .. ظالم انا معكم وامتزجت فيكم ولكنك وقفت وهم معك على بعد بعيد منى .. لم تفرحوا لفرحى انا فقط التى زرعت نفسى بينكم وانتم واقفون فى اماكنكم العفنة ..

اقفل المناقشة وهو يردد :

— العفنة .. والعفن هى النغمة السائدة لدى الشباب الآن .. وهذا تطاول منك .. كما انك ..

— أنى ماذا ؟

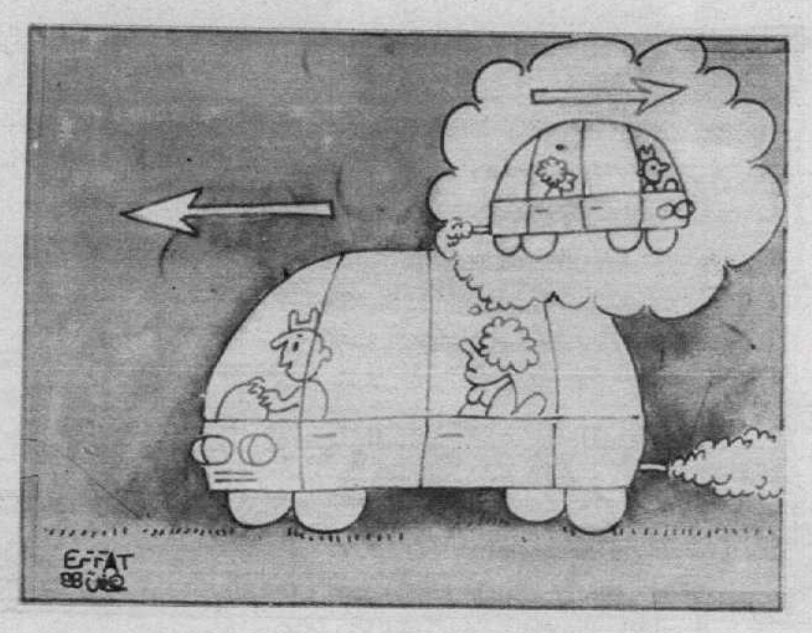
— انك شوهت عقل عمرو !

— وهل الفن ذروة الحق تشويه ! ؟

واستدارت يومها من امامه وهى تقرر ان هذا البيت لم يعد بيتا صار يعطيها الإحساس بالضجر فكلهم محبطون نظرة بلا هوية تسقط منهم على كل شيء حتى قبل ان يستوعبوا تلك الاشياء ليحددوا مواقفهم منها رغم ان بدايتها معهم كانت تخالف هذا الفهم تماما ايامها كانت تخشى غضب خالد وكانت تفسره احيانا بأنه يمزح وهو يقول بعلو صوته « هؤلاء الأولاد اخذوكى منى .. ياسادة اتركوا لى زوجتى ولو من بعد منتصف الليل » ومها معتادة على لقائه بعد منتصف الليل .. وهى تبتكر أرق المقدمات لتنسحب من بينهم .. تصطنع الجفون النعسانة .. تتثاءب .. تتثاءب لانها موقنة ان ذراعى خالد تنتظرها من وقت ليس بالقليل عليه .. بعدها كانت مها تتساءل على وقفتها فى وسط الحجرة « هل الضجر عبق نفاذ يمكن التقاطه او الإحساس به فى غمضة عين أسرع من سرعة الضوء « إن عالمى هنا صار اعمى ولانه اعمى فهو غامض » وإحساس يتيم قبع بوضوح داخلها يقول « من العسير أن ينزع إنسان نفسه منى انه لأشد ضراوة من ان تنتزع الحياة بأسرها منى .. فهل اتعايش واحيا مع من فقدتهم وأنا بينهم ؟ » ..

★ ★ ★


الفصل
الأخير


EFFAT
88

أوقفها السائق كعادتها القديمة قبل الباب الخارجى للكلية «كفاية هنا من فضلك .. حسابك .. شكرا» الضوء شديد الوهج والصفرة فتتعمد أن تغرس عيونها فى كتل الأخضر فى رؤوس الأشجار الداكنة فلا طاقة لها لتحمل هذا الوهج

المشع الأصفر اختلاف الوان الدنيا رحمة بالانسان ولا رغبة لها فى ان تترك نفسها لجولاتها مع الطبيعة لا وقت لديها لحب الطريق الى الكلية.. انها تعتقل هذا الحب تمنعه ان يتنفس او يتنهد فقط تسير قليلا لتستجمع إرادتها وشجاعتها تفكر بانهم لابد سيسالونها عن هذا الغياب وهل كان يجب أن تبلغ بمرضها ؟ طبعا كان ينبغى أن تفعل . ترى ماذا فسر شادى وهالة غيابها .. الانهيار العصبى ! هل هذه عبارة لائقة تصارحهم بها ؟ لا ..لا ستكون مدعاة لأن يسخر الآخرون منها سيضحكون ويقررون أن الغيبوبة الفنية اصبحت غيبوبة عقلية وهى لاتريد تهكما من احد ولا طاقة لها على احتمالهم . ان لهم قرون استشعار يحسون بها حتى قبل أن يروها بعيونهم فعلا ..

لا يهم يجب أن تتجلد .. بمعنى الصبر وحتى بمعنى الجليد الذى يجب أن تسكن أعصابها فيه .. وفجاة انضخ الدم شلالا الى راسها وفى قلبها وإن بقيت اطرافها رطبة لزجة !

فاخذت أوسع شهيق تنوى أن تجرى لتدفىء اصابع قدميها تمنت ان تعثر على شادى او هالة تلك الباسمة دوما والتى تضيف على اصغر الأشياء اليومية معنى الدهشة واحيانا اللهفة فتثير فيمن امامها احساس اكيد بان الحياة تستحق الانفعال بها .. وقبل أن تغيب صورة هالة من امام عينيها دق فى اذنها معنى أن الانسان لأخيه الانسان كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا « .. وأين هذا الانسان ذلك المفقود فقيد الدنيا كلها ؟ »

رعشة تخفق داخلها عضلة قلبها تنبض بشكل محسوس .. احساس ضخم ومخيف ان يشعر مخلوق بما يجرى داخل جسده .. ونبضة اخرى لها طعم الفرح وهى تعثر على ضالتها سترسم ستجسد فى لوحتها القادمة معنى الآية التى تقول « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » كلما عثرت على ما يعبر عن مكنون نفسها تحس سكينة الرضى وبهدوء تسرب بتجسيد شكل اللوحة الفارغة والتى زعموا انها محتها بيدها وكانها قطعت جزءا

من نفسها وانهم كانوا يخلصون اللوحات الواحدة بعد الأخرى من بين أصابعها بصعوبة .. تذكرت اللوحة بيضاء فارغة كما افهمها ذلك عمرو وخالد عندما أشارا الى ذلك الكادر المعين الموضوع على الحامل فى حجرتها الصغيرة من بيته .

ولكنها لم تستطع مطلقا أن تتذكر أن اللوحة قد نقلت وانها راتها بعينها موضوعة فى الحجرة المجاورة لحجرة البواب .

كل هذا الاكتشاف الذى عرفته صدفة الحجرة والتماثيل المصنوعة لها وقطع ملابسها ضاعت من ذاكرتها تماما .. هذه الواقعة بالذات تلاشت كلية . شىء أقوى منها أسقط هذه الحقيقة من عقلها تماما فبقيت باستمرار تتخطى هذا الاكتشاف تتذكر ما قبله كاملا من ذلك الخلاف والجفاء الطويل بينها وبين زوجها .. وفى أثنائه كان معرض الكلية وكانت اللوحة هناك ثم يتخطى عقلها رافضا انها عثرت على اللوحة فى تلك الحجرة لترى نفسها مع عمرو يشير لها بأن اللوحة هى تلك وقد صارت لاتحمل إلا هذا اللون الأبيض فقط بعد أن مسحت معالمها تماما بفرشاة ولون واحد فقط وهمست لنفسها بثقة « لا يهم لن أعود لما كان بالأمس فالغد يحمل لى الجديد » .

هكذا علمتها أمها « لا تنظرى خلفك بغضب ولا بفرح وكونى على ثقة بأن الغد يحمل لك أشياء اكثر سعادة » وفى يوم مضى بعد أن قالت لها عبارتها هذه ردت عليها مها :

— لكن اين هى السعادة يا أمى ! ؟

— عجول .. وهل يعقل أن لايكون لك نصيب من السعادة .. ولماذا يابلهاء .. ؟

— لأن الله لا يحبنى مثل فلانة أو فلانة أو تلك أو ...

— ومن أنت لينساكى .. انت ابنة له كلنا أولاد له فكلنا من روح الله .

— ما معنى ما تقولين يا أمى !! ؟

افاقت .. افاقت من عالم ذكرياتهاعلى من يوقفها .. يمنعها من دخول دارها . كليتها للحظة برق فى ذهنها شكل الكلب الذى احضره لها خالد والذى كان شديد العداء لها ثم افاقت منتبهة مرة اخرى تعى أن هناك اختلافا حدث فى بهو مدخل الكلية الذى تعرفه ..

المكاتب عريضة وكثيرة يقف خلفها من يرتدون ملابس قاتمة وفى ايديهم أجهزة يتناوبون بها الكلمات فيما بينهم وتسمع « السيدة مها رءوف .. تمام يا افندم » ثم يرفعون أيديهم بالتحية العسكرية فتتلفت يمينا ويسارا لتعرف قصدهم فلا تجد إلا الصوت الآخر يرد أيضا بالتحية ثم يعقبها بعبارة لم تستطع أن تفهمها نبضها يهمس لنبضها :

« رباه هل دخلت مكانا آخر غير بيتى .. كليتى » ..

— هل معك ما ينبىء عن شخصيتك ؟

فتشت فى حقيبتها لا شىء على الاطلاق إلا ما اعطاه لها سائق العربة أعاد سؤاله :

— هل لديك ما ينبىء عن شخصيتك ؟

— انى .. انى موظفة هنا وانى مها رءوف .. و ..

أمام الجهاز الذى يقربه من فمه كان يردد بوضوح :

— فتشنا الحقيبة وتمسك بكتاب واحد ..

ويكبر السؤال داخلها من هم ؟ وماذا جرى ؟ وقالت :

— تستطيع أن تسأل العميد الدكتور عودة عنى

— ... ...

— اطلبه ان رقم الهاتف هو ٦٥٠٤٠٨٠

— ... ...

— من أنتم ؟؟؟؟؟ !!!!!

وبعد أن قلب صفحة .. صفحة من كتابها كان يفسح لها الطريق لتعبر من امامه .. دخلت وكلمة « اتفضلى » تطاردها من امامها ومن خلفها الى مكتب العميد وتتساءل بصدق مع نفسها « تراهم

لا يعلمون اننى استطيع ان اصل الى هذا المكتب مغمضة العينين ؟ » وخلف المكتب كان يجلس احدهم .. ليس بالتاكيد الدكتور عوده فاحتضنت كتابها الى صدرها .. هب مندفعا واقفا فازداد احتضانها للكتاب باستماتة :

— انا المقدم السيد رشدان :

لا إراديا كانت تقول :

— مها رءوف هاشم موظفة فى مكتب الدكتور عودة

— نعلم هذا

عيونها لا تفارق وجهه وهو قد تشاغل عنها بترتيب شىء أمامه ثم قال :

— اعتقد انك فى حاجة لفنجان قهوة

لا اراديا ايضا كانت تقول :

— افضل شرابا باردا

توقفت يداه عن الحركة وقال بود :

— على العموم حمدا لله على سلامتك

فكرت لأقل من ثانية « رباه من أين له بالسؤال عن صحتى » ولكن بلا إرادة كانت تقول :

— هذا أول يوم لى اخرج فيه من البيت

— نعلم نعلم

ويلح السؤال عليها « من هم الذين يعلمون » وعلمت هى كل ما فاتها وهى غائبة فى نومها الطويل .. نومها المجلوب .. ثورة الشباب .. الاتجاهات المتطرفة .. تكفير الحاكم والمحكومين ومن يشجعون هذا الاتجاه الذى يسرى مسار النار فى الهشيم .

لم تجرؤ أن تساله : ولماذا يوجد هشيم ليكون اصلح غذاء للنار ؟

ولماذا وجدت النار اصلا ؟ وأين العقل الفردى أو الجمعى ؟

لم تستطع ان تقول له : كيف يكون الانسان لأخيه بهذه الانسانية المفقودة ؟

ولماذا نقول بالسلفية وكانها التخلف ، لا لا لم تجرؤ ان تقول : لابد من البحث عن الأسباب ومعرفتها لابد ان يعرف الداء وان .. وان .. وان ..

— كان لابد من اجراءات قمعية بامدام ..

وهل تسمون ما أرسمه اتجاهها يساعد على التطرف ؟

— من واقع آراء الآخرين والبحث والتقصى انت تشكلين أخطر ما فى هذا المكان .

من فورها وبتلقائية كانت تقول بقوة :

— انا .. انا الباحثة دوما عن انسانى المفقود ..

ثم فاجاها قبل أن تنهى كلامها :

— ما وظيفة الدين من وجهة نظرك ؟

اجفلت لبرهة بعدها كانت تقول بصدق الدنيا :

اننى لم افكر فى تحديد وظيفة له بعينها ولكنى ارى أن له الكلمة الفصل فى كثير من الأمور التى تحير .. و

انبرى مقاطعا :

— كلام مبهم .. غير محدد ولا مقنن حتى بالنسبة لأقرب الناس اليك ..

فكرت لبرهة ايضا وهى تردد :

— لأقرب الناس الى .. تقصد منْ من الزملاء ؟ انهم دائما ..

قاطعها وهو يقول :

— لا عليك من الزملاء لا اقصدهم انما انا اعنى سيادة الدكتور .. ؟؟

— الدكتور عوده ؟

— بالطبع لا فانا اعنى الدكتور خالد زوجك ..



دق قلبها كناقوس كنيسة انهارت بلا مقدمات ولكن بقى ناقوس الحق يدق يسمع العالمين وعلا ناقوس قلبها وهى تستفسر :

— خالد ماذا تقصد ؟؟

فتح احد أدراجه ولم يرد عليها .. النبض داخلها نباحا وعواء . فماذا يعنى ؟ ولم يطل انتظارها إذ مد يده لها بمظروف تناولته وهى تنقل عينيها بينه وبين المظروف تشاغل مرة أخرى .. يعيد ترتيب اشياء كثيرة قلبت المظروف بين اصابعها كان مفتوحا فشدت منه ورقة وفضتها بعدها كان الجسد يرتج منها بضراوة والورقة تهتز فى إيقاعات عابثة بجنون تكاد تحجب رؤيتها للكلمات .. وكانت تفسر بسهولة انها ورقة تضيف اليها صفة المطلقة .. طلاقا بائنا من خالد ..

وضعتها على ركبتيها وبقيت شاخصة مشرئبة بعنقها نحو المقدم « رشدان » لقد فهمت الرسالة ولكن بقيت عيونها مستغرقة فى نظرة اليه .. لاشىء فى راسها .. لاصور فى مخيلتها وحين تلاقت عيناها بعينيه غاب عنها لأقل من برهة .. ثم رفع سماعة الهاتف واستطاعت أن تتبين بوضوح أنه يطلب لها عربة لتوصلها الى أى مكان تريده ..

واقعية الدنيا هبطت عليها وأسرع من لمعة برق عرفت بلا مهل حقيقة لوحتها المفقودة .. قسوة اللحظة استجلبت بكل سفور الحادثة المنسية وكان عقلها كان قد تعمد نسيانها كقشة أمل لتتعلق بها .. لم تكن تريد فى تلك اللحظات أن تواجه نفسها بحقيقة مافعله خالد فتعمدت نسيان كل ما عرفت اما الآن وتحت وطاة ما تعيشه « الطلاق » .. وبهذه الطريقة فقد وضح لها كل شىء غاب عنها او تعمدت أن تغيبه فعلا ..

واقعية الدنيا وفدت عليها وتخطت ما عرفته ليحل محله السؤال « الى اين ساذهب ؟ الى بيت امى ؟ إستاجره أغراب ولكن هناك

حجرة بعيدة فى مدخل الحديقة .. لم تقبل امى ان يحل احد فيها بعد وفاة الخادم الذى لازمها عمرا ، ساعيش عبق حى المعادى مختلطا بمذاق رائحة امى » ..

وبإرادتها كاملة كانت تنظر إلى المقدم رشدان :

— سيادة المقدم اطمع فى خدمة ؟

— ... ...

— ان ابقى هنا الى ان تحضر لى العربة منى ورجاء ..

● ● ●



كتب للمؤلفة :

- قلب بلا قناع .... (رواية) : ترجمت للفرنسية
دار الفكر العربى
- اللعبة والحقيقة .... (رواية) :
دار الفكر العربى
- الزوجة الهاربة .... (رواية) :
كتاب اليوم
- قدر الآخرين .... (رواية) :
نموذج يدرس فى السربون بعد الترجمة
كتاب الإذاعة والتليفزيون
- زوج فى المزاد .... (رواية) :
كتاب الشعب
- مسافرة مع الجراح .... (رواية) :
كتاب اليوم
- الملم عقدى بغضب .... نشر فى العراق